

على الضفة
الأخرى

رواية

بإعداد

فريق روائع



کتابخانه و اسناد
جمهوری اسلامی ایران



رواية

على الضفة الأخرى



ما وراء السطور



الكاتبة: هبة خالد اشقيفي

الكاتبة: أية محمد حلمي

الكاتبة: سجي غنام الهويدي

تنقيح

. سجي علي خليل أبو الخل

. هبة خالد اشقيفي

مدير الفريق: محمد شعبان

فريق روائيون

الإهداء

إلى الصديقات اللواتي أحببنا بصدق
جعلنا نرتقي ونصعد حتى نبلغ غايتنا
إلى تلك التي شاركتني حلمي ونظرناه
معاً حتى صار حقيقة
إلى اللواتي اجتمعنَ بقربنا استجابةً
لدعاء أمهاتنا الصادق بالصحة
الصالحة

المقدمة

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ
الْقَدْرُ وَلَا بُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِيَ وَلَا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِ تَبَخَّرَ فِي جَوْهَا وَانْدَثَرَ

إِذَا مَا ظَمَخْتُ إِلَى غَايَةِ رَكْبَتِ الْمُنَى وَنَسِيتُ الْخَذِرَ
وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وَغُورَ الشَّعَابِ وَلَا كُبَّةَ اللَّهَبِ الْمُسْتَعِرِ
وَمَنْ يَتَهَيَّبُ صُغُودَ الْجِبَالِ يَعِشُ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ

الْحُفَرِ

حيّ الفردوس عبارة عن مدينة مصغرة لديها الكثير من الأسواق والمعامل والمدارس.

كما أن القدر قد جمع بين الفتيات الأربع شغف ورزان وأمل وبراعة.

إذ انتقلت أمل إلى حيّ الفردوس مع عائلتها عندما كانت في الثالثة من عمرها والتحقت في مرحلتها الابتدائية في المدرسة التي كانت على طريق مَعمل والدها عادل حيث يوصلها كل يوم وتطمئن والدتها عنها،

عن طريق رفيقاتها الملمات اللواتي سيُعلمن ابنتها.

وهناك شاءت الأقدار أن تتعرف أمل على الصديقتين شغف ورزان حيث منحتهما قلبها وتقدموا لها بأرواحهم.

وبعد عامين تقريباً انضمت براءة لمجموعتهم فتشكّلت بينهم روابط قوية صعبة التفكك إذ جمعهم الحلم العظيم والفكر السليم.

لكنّ أمل كثيراً ما كان يغضبها تقارب منازل صديقاتها وبُعد منزلها عنهم فهم بجانب بعضهم معظم الوقت أما هي فلا شقيقة لها تؤنسها ولا أقارب من ذات عُمرها.

إلا أنها تملك قلوب صديقاتها فكل الأحداث التي تجري معهم بعد دوامهم سيسردونها لأمل في اليوم التالي

وهي تستمتع وتتدفع لتعرف عنهن أكثر وأكثر..

عند شروق الشمس، الجميع يستيقظ بنشاط مع الدعاء الذي لا يُفارق قلوبهم بأن يبقوا تحت حماية اللهوستره وألا يمسّهم ضرر من الأعداء، وها هنّ العظيمات يُكْمِلْنَ واجباتهنّ كأُمّ وزوجة على أكمل وجه

وأصوات خطوات الأطفال تتوالى مع الضحكات.

ومنازلٍ مطليةٍ بالحب.

وأيضاً منزلٍ تسكنه فتاةٌ بعمر الربيع.

لزهرة في ربيعها الخامس عشر تجتمع بها معاني الحب والنشاط. لم يقتصر أملنا على اسمها بل كانت تحمّلنا وتحمل خيبتنا وتزهو بنا بزهرة الحياة، وكأنه قد سكب كوبٌ من القهوة البنية في عينيها، كانت الجدار الحامي من خيبات الحياة، لا تظلم ولا تجدد، صاحبة الأحلام العفوية والقلب النقي، لطالما كانت تطمح بأن تكون دواءً لكل جرح، كان الكفاح والنضال سابقاً لاسمها نحو حلمها.

ولكنه المشفى باهظ الثمن والجهد كان على قلب هوى حلمه.

وفي المنزل الآخر كانت صاحبة العقل الكبير، لزهرة أوشكت على إنهاء ربيعها الخامس عشر، رزان صنيع حروفٍ تُقيم الحُروب بعقولنا، هوت ولا زالت تهوى القلم والورقة، تكتب و تقرأ، تكتب لنقرأ، تلقي على من أحبت شعرها فتزيد من هواها حباً لشعرها، وفخراً بها

ولكن... .

دائماً ما تدور أحلامنا حولنا ولكن على أبعاد منها، تحاول
إيصال فكرتها للناس أجمع أنها تمتلك حلماً آخر، ولكن هل
من مُستمع؟ .

لم يَكُنْ اليأس والمَلل في قاموسها، وكأن عينيها تقول في
كُل مرة لا لليأس يا زهرتي فغداً سنصل إلى القمة.

وهناك منزل شغف في عامها الخامس عشر، تملك شغف
عقلاً يُعتبر علاج طبيعى للآخرين، دائماً ما تلجئ للعلاج
عن طريق الطُّرق التقليدية، وكان دافعها مهارة جدتها
ووالدتها، وتُعينها الأُخريات على ذلك، كلما نظرت إلى
اخضرار عينيها

ترى جوهرة تخبرك بأنك تستطيع أن تفعل أي شيء.

وفي المنزل الأخير تعيش براءة التي تخطت الرابعة عشر
من عمرها ، أصغر الزهرات وأجملهن

ولكنها تخشى الآخرين وكلامهم بطريقة التمر، لم يَكُنْ
لديها جدار تحتمي به غيرهن.

وكانت قد ورثت من غزال عينيها.

تُخبرك بأن العالم سَيَعُودُ بريئاً كما تنتظر إليه دائماً.

وحين ذهابهن إلى المدرسة، بحماسٍ لتلك الليلة التي
تَنْتَظِرُهُنَّ بترقبٍ.

مُراقبة النجوم وثرثرة الأصدقاء المعتادة.
في كُلِّ نهايةٍ من الأسبوع، تأتي هذه الليلة للتخطيط
للمستقبل واسترجاع الذكريات والأمل بتحقيق الأحلام
البريئة السامية .

عند حُلُولِ المساء، جَلَسْنَ سوياً يُراقِبْنَ النجوم، والنجوم
تقهقه إعجابهن بأربعة نجوماتٍ على الأرض.

وها بشريط الذكريات يمر...

قالت رزان بصوتٍ ضاحك :أتذكرون عندما تناولت براءة
الشوكولاتة الخاصة بأمل ؟

فردت براءة بخجلٍ وضحكٍ طفيف :قد غلبني جوعي ولم أرَ
غيرها أمامي.

ردت أمل بغضب : كاذبة!. لقد كان هناك الشوكولاتة الخاصة
بشغف أيضاً.

ردت شغف مُستمتعة : لا كنتُ قد سَبقتها خَبثاً وأكلتها.

تبادلن النظرات والضحكات .

رزان : وعندما لم أقم بواجبي المنزليّ ، جاءت المعلمة كانت تمر
لتقول لي أين واجبك يا رزان ؟.

لم أجد حجة مقنعة فبدأت أتلفت بأنظاري وجدتُ حلاً لأمل
،ونظرت لي أمل بإيماءاتها أن أعطيها إياه وأقول لها حجةٍ مني
، وأنا أتخبط توتراً ولم أفهم إشاراتِها ، فتوقفت أمل قائلة :
أعطيها واجبي أيتها الحمقاء ، نظرت لها المعلمة بغضب وأشارت
لها بالخروج خارج الصف ، وتوقعت وقتها أن أمل سترتكب بي
جريمة

أمل بصوتٍ ضاحكٍ :وحيثما بقيت خلفك للانتقام.
شغف :نعم تذكرت ذلك اليوم الذي ضحكْتُ فيه حتى سالت
دموعي .
براءة :في الحقيقة يا أمل كُنْتُ ستعاقبين في الحالتين.
أمل :لِمَ يا صغيرتي؟

براءة :لأنك لم تقدمي واجبك أيضاً .
تبادلوا النظرات والضحكات

رزان : عندما كُنَّا نَجهز ليوم ميلاد براءة ،وكانت الكاتو
من شَغف، وإذ بشَغف تتصور جوعاً فقامت بأكله.
"سادت السعادة وتعالَت الضحكات في تلك الليلة".
شغف : أتخيّل كما لو أننا حققنا ما نريد.
أمل: وأنا أرى نفسي هناك مُديرة في المشفى.
رزان :لا أنا من سأكون المُديرة
براءة :ولمَ لا أكون أنا ؟
ردت شغف بضجرٍ وطفولة : أيا ليت ذاك تخيّل لم يأت .
وتعالَت الضحكات .

حين يصير الحلم أهلاً

أمل

في يومٍ ماطرٍ عاصف هبت الرياح جارفةً سموم الحرب
معها لتهتك الحرمات وتهلك كل ما على هذا الحي من ناس
ومبانٍ وأحلام

بدأت تلك الحرب المستعرة بأصوات مدافع بعيدة فقالت
جدتي بكل حرصٍ على كلماتها ونبرتها لتهدئ من روعنا
فالجذع أخذ منا كل مأخذ لم نكن نسمع كتلك الأصوات طيلة
عمرنا

- لا تجعلوا الخوف يتمكن منكم فما أتوا إلا طلباً لذلك
وأذكر قبل هذا كان هناك بعض الأزمات السياسية إذ
يطلقون النار ويرهبون الناس وبعد ذلك يتراجعون

أكمل أبي علي الوتيرة نفسها

لا داعي للخوف فالصوت آتٍ من بعيد ربما هناك عصابة
سرقة تتجول في الأحياء هروباً من قوات الأمن ويلحقونها
سيعثرون عليهم على أية حال

نظرت في عيني أبي ومن ثم جدتي فرأيت الخوف والقلق
وراحت الأصوات تعلو وتقرب مصطحبةً معها روائح
الرصاص التي عبقت في المكان ففسد الأكسجين الذي

نستنشقه وشعرت وكأنه حديد تم وضعه على صدري
فمنعني من التنفس لساعات

وبالتدريج أُضيف للمشهد كله صوتُ هدم المباني لتتحول
إلى رُكامٍ شنيع المنظر .

نزل أبي رغم إلحاح أمي عليه بالألا يفعل ريثما تهدأ
الأصوات ويخف الخطر بينما كنت أحاول أن أتصل على
جدي ومن ثم صديقاتي لكن الهاتف لا يعطي إشارة فقد
أوقفوه ذهبت إلى هاتف أمي الجوال لأجدّه مفصولاً من
الشبكة التي حاولت مراراً وتكراراً فلم أنجح ورحت أقول
لقد قطعوا وسائل التواصل كان فكّي الأسفل يتحرك بإرتجاف
فحسبته ليس مني لحظة تكلمي ثم نزل أبي ليطمئن على مَنْ
تبقى من الجيران والأقارب أما جدتي ثريّة فقد خفق قلبها
بشدة واضطرب خوفاً على عمي زياد وعائلته وجدي الذي
بقي معهم في البيت .

الكل هنا في خطرٍ تام كان الوضع مأساوي ومرعب للغاية .

أبى والدي أن يمكث بين النساء كأنه منهم كما خشي أن
تصاب جدتي بمكروهٍ إثر خوفها على مَنْ تركتهم وراءها
في منزلهم فنزل بين الرصاصات التي تستهدف شارعنا
والقذائف التي تليها راح متجهاً نحو بيت جدي ليطمئن
عليهم ويعود بهم إلينا فتسكن مخاوف جدتي التي بدا عليها
التوتر والإرهاق بسرعة

وفي اللحظات الأخيرة زادت الألوان التي يُضاء بها منزلنا
فلم نعد نميز بين الرعد والقصف تداخل كل شيء ببعضه
ومرت ساعات وكأننا في كوكبٍ آخر لكم تمنيت أن يكون

حلماً مزعجاً وبعد ثوانٍ سافيق من نومي لأتناول كأس
الماء بيدي التي ترتجف وأغير الاتجاه الذي استقبلته وأنا
أستعيز بالله فأعود لمضجعي وأقول أضغات أحلام لا أكثر .
لكنه الواقع للأسف ارتفع الصوت فحسبته استهدف منزلنا
لكثرة الرصاصات على نوافذنا والبراميل التي سقطت في
الشارع الذي نسكن فيه

خافت أُمي أن يقصف بيتنا فقد توالى الضربات وكانت
علامة على الشر القادم لا محالة فطوبى لمن نفد من هذا
الخطر

حزمت لنا أغراضنا في حقيبة سفرٍ متأهبةً للخروج إلا أن
أبي ما زال خارجاً ولم يعد حتى الآن ومن آخر الاحتمالات
وأصعبها أن نخرج بدونه

الأمطار تهطل بغزارة والجو شديد البرودة فشعرت بيدي
الحمراوين أنها ستنقطع خوفاً وبرداً واحتضنت إخوتي بين
ذِرَاعَيَّ وأنا أكرر المُعوذات على لساني
راحت أُمي تتدب ويحي كيف أتركه يخرج ماذا عساه يفعل
الآن في ظل هذا القصف الوحشي؟؟

فقالتي جدتي بصوتٍ أليم

كُلّ اللوم لي وحدي ما كان عليّ أن آتيكم وحدي دون
البقية لو كنت في منزلي لكان الوضع أفضل بكثير إذ أكون
مطمئنة على كل من في بيتي وأنا بينهم فإما عيشة للجميع
أو ميتة لهم وأظن عادلاً ما كان ليخرج من بيته لولا تلك
الملاحم الحزينة اللعينة التي رُسمت قسراً على وجهي.

وما كان لأمي المسكينة التي كان اختبارها في أعز شخص
على قلبها إلا أن تطيب خاطر جدتي التي تملكها انهيار كامل
بكلام لين ذي نبرة خفيضة

لا يا أمي هذه مشيئة الله التي لا مرد لها فقدّر الله وما شاء
فعل حاشا أن نعترض على حكمه وما أدراك أنت بهذه
الملحمة التي ستشهدا أحيائنا من قبل وما تنبأ بها أحد قط
حتى كانت.

ورغم خوفي لم أنس مسؤوليتي وواجبي اتجاه إخوتي
الصغار فاحتويتهم في غرفة داخلية مغلقة حيث لم يكن لها
أية نافذة ولها باب صغير تسودها العتمة والرهبّة فكانوا
يسموننا لإخوتي وأولاد عمي حين يقومون بزيارتنا بمخبأ
الفئران رغم أنها لم تُزر من قبل أية فأرة لكنها الكناية التي
يختارونها ليهددوا الأطفال بها حين يكثر شغبهم .

وعندما أمنت على إخوتي وأخذت بالأسباب ثم توكلت على
الله واستودعتهم عند من لا تضيع ودائعه

تسلّلت خلسة لنافذتي ولم أعرف تلك الشجاعة والحماسة
التي تسكنني قبل ذلك ولكنني كنت على استعداد أن أفعل أي
شيء لإطفاء النار التي وقدها أبي بخروجه وراحت الأفكار
تتصارع بعقلي

ولا بدّ أن أراه من نافذتي التي لم تسلم من ضرباتهم الخبيثة
لكنني لم أر أبي أو أي شيء يدلني على خبر منه.

بل رأيت شاحناتٍ كبيرة ولمحت جارنا وامراته وصديقة
أمي وزوجها

شهدت الناس وهي تتكدس فوق بعضها ب الحافلة وهناك
من حمل حقائب وآخر من لحقه بالأولاد

ذهبتُ إلى أمي وجدتي معها فأخبرتهم بما رأيت من نافذة
غرفتي وأخبرتهم بمنظر الحافلات الخضراء التي امتلأت
بالراكبين حتى الشبع ولم أنتهِ بعد حين طرق الباب بخوفٍ
وعنف، دقائق سريعة تتالت فيما بينها فاستعجلت أمي في
فتحه لعلَّه والدي عاد من عراقٍ طويل لكنه من طرف واحد
فقط

على كل حال لم يكن أبي الطارق بل كان عمي زياد وبيده
يمسك هاتفاً لا سلكياً تتوافد الأخبار إليه من خلاله

زياد

عندما سمعت بالأخبار السيئة عن القصف القائم على حي
الفردوس من أوله في السوق وصولاً لشارع أخي عادل
هرولت مسرعاً كالمجنون الذي فقد عقله قبل دقائق
أركض قليلاً ثم أشرد في الطريق

كانت قدمي تأخذني دون إرادةٍ مني أو تدبير وأنا أسير
حسب ما تفرضه عليّ فقد حفظتُ الطريق عن ظهر قلب
خلال الطريق فكرت بأمي التي تزور ابنها بهذا الحي الذي
استهدف للتو ولا بد أنهم قلقوا وتأزمت أحوالهم وربما....

كل هذه الأفكار الشيطانية راودتني
مشيت مسافاتٍ من الخوف والحزن شعرتُ بالهزيمة تنبأت
بحربٍ تمر بالجميع وتقتلع جذورهم
وصلتُ إلى منزل عادل هائماً على وجهي راجياً أن ألقاهم
أحياء ولا أمل لي غير هذا
بعد أن قامت يدي التي شعرت بأنها بُترت فتحركت وحدها
بطرق بابهم الكبير الذي أخافني حجمه وأراحني قليلاً أنه ما
زال موجوداً
فتحت لي ليلي زوجة أخي بعد ثوانٍ ثقلت على قلبي فكدت
أكسر الباب بعد أن رأيت باصاتٍ خضراء في شارعهم
والناس تتوافد إليها وتحمل أغراضها لتتجو من هذه الحرب
اللعينة فبادرت بلهفة غريبٍ نزل بين أصدقائه
-كيف حالكِ يا ليلي؟ أمي أخي الأولاد أكلكم بخير إن شاء
الله؟

-نعم يا زياد نحن بخير ولكن....

وسكنت بعد ولكن فشعرت بوخزةٍ تسكن أحشائي وتوقعت
المصيبة التي تنتظرنا

فقلت لها هيا تجهزوا لتخرجون مع الناس فالأعداء تحشد
وتعزم على هدم الحي بالكامل فقد كان هدفهم للأسف وها
هم يهيئون الباصات لتقلكم إلى مدينة أخرى آمنة
أنا أتحدث وهي تبكي فظننته خوفاً وحسب إلا أن أطلت أمي
من ورائها بوجهها الشاحب وعينيها الباهتتين لتخبرني

بغياب أخي عادل الذي خرج ليطمئن علينا وقد تضاعفت
الهموم على قلبي المتعب

توترت وزادت حدة نبرتي ماذا كيف له أن يخرج بين
القذائف الرزيلة والله لا يفعلها إلا الأحمق وتساءلت كيف
تمكن من تجاوز الحدود والحي مغلق إلا من الباصات التي
تنقذ الناس ولو لم أزحف على بطني لما استطعت الدخول لا
بأس أمي فلتسبقونا مع الناس ونحاول اللحاق بكم فور
إتاحة الفرصة

أما أمي التي تعلمنا منها الصبر والمجاهدة فكانت كعادتها
تصرّ على البقاء ريثما نجتمع ونخرج معاً إن ساءت
الأحوال أكثر

فما كان لي إلا أن أقنعها بطريقتي

حين قلت

حَسْبُكَ يَا أُمَاهُ تِلْكَ الْأَطْفَالُ مَا ذَنْبُهَا لِنَعْرِضَهَا لِلْخَطَرِ
وَتَحْسَبُ الْأَيَّامَ أَوْ السَّاعَاتِ الْبَاقِيَةَ لِمَوْتِهَا وَقَدْ أَلْهَمَنَا
اللَّهُ طَرِيقاً لِإِنْقَاذِهَا كَمَا أَنَّ النَّاسَ فِي الْأَسْفَلِ يَا أُمِّي يَرْكَبُونَ
بِالْبَاصِ وَمَا بَوَسْعُهُمْ أَنْ يَنْتَظِرُوا اجْتِمَاعَنَا وَنَحْنُ مَشْتَتِينَ
هُنَا وَهَنَّاكَ فَلْتَتَحْمَلُوا سَاعَاتٍ فَقَطْ وَإِنْ كَانَ لَنَا نَصِيبٌ فِي
الْعِيشِ فَسَنُلْحَقْ بِكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَبَّمَا أَيْضاً لَا نَحْتَاجُ الْخُرُوجَ
إِذَا تَعُودُونَ أَنْتُمْ

وقبل أن تجيبني إذ لا فائدة في المحاولة معها خرجتُ
بالأولاد من غرفتهم المظلمة الباردة قاصداً الباص السادس
على الترتيب

إذ انطلقت الخمسة الأولى قبله

ونزلت أُمي مع أمل وليلى بعد أن ارتدوا ثيابهم المغبرة
والممزقة إلا أنها تستر والحمد لله

صعدوا أمام ناظري فالتفتُ إلى السائق وسألته ما وجهتكم
يا عماه؟

فأجابني أخبرونا إِدلب وهم يسكنون حيث شأؤوا ظننت
وقتها أن إِدلب هذه عبارة عن شارع واحد أو حي يحوي
أزقة معدودة فمجرد أن ألتقي بعادل ساقوده إلى إِدلب مارين
ببستان القصر حيث بقي أبي مع عائلتي فنصطحبهم معنا
ريثما تهدأ هذه الحرب الضارية كما تركت السائق وطبعتُ
قبلة حارة على يد أُمي كادت أن تحرق جلدها المتجدد
فاجتمعت كل أنفاسي الملهبة فيها وهمستُ في أذن أمل
ابنة أخي والتي كانت محط أُملي بالمستقبل الذي حلمتُ به
و

حُرمت منه فطلبتُ منها أن تعين منَ معها وتكون فيهم كما
كان والدها.

فبشررتني بإبتسامتها المشبعة بالحزن والمقاومة معاً وقالت
أنا أقوى مما تظن يا عمي فكما تعرفني البوصلة لقلب جدتي
كما أُمي أما أخوتي فأنا عندهم بمنزلة الأم الثانية لا تقلق
من هذه الناحية أسأل الله أن يعجل بالفرج ويطمئن قلبنا
بلقائكم مجدداً سالمين

وانطلقوا وأنا أراقب ابتعادهم

أمل

حلقات بحثٍ لا نهائية في خزانتي التي أُطيحت قبل ساعةٍ
على الأرض فتفتحت أبوابها وتكسر صندوق مجوهراتي
فمزق الملابس وقد تكدست فوق بعضها والناس تنتظر
والقذائف تنتشر في الأنحاء لا أدري كيف وقعت يدي على
شال أمي الأسود فرميته على أكتافي وحمدتُ الله على
الشتاء الذي سترني برده بالملابس الصوفية ورميت حجاباً
أزرقاً قد تحول للسواد من الدخان والغبار التي صاحبتة
نزلتُ الدرج وشعرتُ بقلبي يهوي كلما اقتربت من الشارع
أكثر وقد سبقتني أمي مصطحبةً معها جدتي
جلستُ إلى جانب أمي وأخذت أخي الذي بلغ عامه الأول قبل
أربعة أيام من يدها فوضعتُه على فخذي الأيسر وقد رفعت
حقيبة الثياب على الفخذ الأيمن
لاحظتُ دموع أمي التي حاولتُ كثيراً كتمها فوضعت يدي
على كتفها وقلت
هوني عليك يا أماه لعلهم قادمين في الباص اللاحق الذي
يلي هذا وعلى الجهة الأخرى كانت جدتي ثرية متكئة على
عكازها، فنظرتُ على عدسات نظارتها المشبعة من فيض
دموعها وقد جلس في حضنها أخي جاد ذاك الطفل الذكي
كثير الحركة والكلام حيث راقبته وهو يرسم بيتنا على
اللوح الزجاجي المثبت مجاوراً لكرسيه وساعده في ذلك
البخار الذي اتجه من فمه نحو لوحه الذي يرسم فيه آخر

محطة لنا على هذه الديار كما هو واضح حتى لحظتنا تلك
فكانت لوحة مثيرة للألم والإعجاب معاً خطها بإصبعه
الصغير و فيض إبداعه

تمنيْتُ لو أنني للحظة أسمع اسمي يُنادى من جماعةٍ لألتفت
إليهم وأجد أبي و عائلة جدي ابتداءً منه وانتهاءً بأيمن ابن
عمي زياد .

أما صديقاتي فقد تألمت لفراقهم وخشيت أن يمنعي القدر
من اجتماعنا مجدداً ولكن الخوف من طرفهم قليل لأن العدو
دخل بالتدريج السوق أولاً ومن ثم شارعنا و.....

قتله الله لا أعرف إن كان سيكمل سيره وفساده أم أن الله
كتب لبقية الشوارع الأمان ؟.

زياد

بعد أن ابتعد الباص واختفى حيث لم تعد عيناى قادرة على
رؤيته ذهبت لأبحث عن أخي عادل ومرت أيام من البحث
والقصف مازال مستمراً إلا أن جاءت العناصر وألقت
بالجثث أمامنا في وسط الشارع فعرفته من بين آلاف
الضحايا وذلك بلحيته الطويلة وما تمكنت من تمييز أياً من
ملامحه التي تهمشت فجھلتُ مظهره باستثناء بنطاله
الأسود الذي انعكس سواده على دمه الأحمر وربما تحول
احمرار دمه لسوادٍ لتأخيرنا في دفنه .

والذي أكد لي هويته ذاك الحذاء البني غليظ الساق الذي
طلبه مني بالحاح شديد على استعارته فأهديته إياه
واشتريتُ آخرًا

حيث أبى هذا الحذاء أن ينفصل عنه رغم إصابته القاتلة
وقد ضيقوا علينا الحصار إذ لا مجال للخروج من حي
الفردوس أو الدخول إليه فكدنا أن نموت جوعاً أو اختناقاً
من روائح الكيماوي والجثث التي كانت سبباً في موت أغلب
من تبقى في هذا الحي

أمل

ذهبتُ أتأمل وجوه الناس في الباص التي بدت غريبة جداً
حسبتهم من عصر آخر حتى الذين عرفتهم رأيتهم غرباء
بنظراتهم الساهمة ودموعهم التي تتأرجح في المقل.

أخذت نبضات قلبي مجرى آخر فراحت تنزف مع كل
سيمفونياتها حين بدأت الفتاة اليتيمة بغنائها

موطني....موطني

الظلام والدمار....والخيام والحصار في رُباالك... في
رُباالك

الأموات والتهجير والأصوات بالتفجير

في هواالك...في هواالك.....

قاطعها رجلٌ ثلاثيني أصلع الرأس لا رموش له ولا شارب
وكان الشعر حاربه من فترة طويلة

-كفى بالله عليك كفى عن تعذيبنا سكنت في حين أكملت
دمعاتها النشيد الوطني الجريح أما جمال فقد بانت عروق
عينيه وكادت أن تُفقا وأنا أراه يتألم كان إحساسي ينبهني
ثمة شيء غير الظاهر يطيح بهذا الشاب وضع يده على
رأسه وتحسس شعره الغائب منذ زمن وراح يهذي بقوله
سرطان بالدم ومثله بالوطن أما الأول فقد سحق جزءاً من
صحتي وشعري ورئتي بالإضافة إلى الكثير من الحياة وأما
الثاني فقد كانت له الحصة الأكبر لم تكن القسمة عادلة
بينهما على كل حال هنيئاً لهما جسدي وروحي معاً، وفي
آخر جملة له شخصت عيناه وابيضت شفثاه وأخذ جسده
لونه الأصفر فما كان عليّ إلا أن أضع أخي غسان في
حضن أمي وأركض إليه أمسكت يده ولأول مرة تلامس يدي
يد شخصٍ أجنبي ولأول مرة أشهد شخصاً يحتضر أمامي
وكانه خبأ برودة عدة فصول شتائية متتالية في يده لو أنني
ألمس الجليد لما تصدعت يدي مثلما حدث مع يده رفعت له
السبابة ونطقت الشهادتين نيابةً عنه فقد انتهى أجله قبل أن
يفعل وألقيت بشالي الأسود عليه وعلى أية حال لا أحتاجه
على أكتافي بعد أن أصابني ما أصابني من برد الشتاء
وصقيع الخوف وزمهير التهجير والبعد
وعدت إلى الكرسي المجاور لأمي فأخذت أخي لأعيده إلى
حضني وأمسكت يده الصغيرة بأصابعي المتجمدة وقلبي
المتوهج

ثرية

وأنا في الباص إذ ودعتُ زياد وفارقت عادل وزوجي فعرفت
من ذلك الحين أنه الوداع الذي لا لقاء بعده .

وراحت ذاكرتي تضج بالذكريات التي تؤلمني باستدعائها
حيث كان لي مع هذا الطقس مراسم عائلية دافئة إذ أستيقظ
وأبو زياد مع أذان الفجر فنتوضأ ونصلي جماعةً وأحضر
القهوة لنشربها سوياً مع صوت فضيلة الشيخ ماهر
المعيطي وفي كل مرة يكرر أبو زياد قوله مأجمل صوته إذ
يذكرني بالجنة فأشتاق لها كما يفعل مع النار فأخشى أن
أفعل ما يقودني لها.

فأجد بصوته الأمان والقلق معاً .

فأجيبه

- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

وخير الخطائين التوابين

وبعد ذلك يذهب بدوه لإيقاظ الأولاد أما أنا فأكون قد
حضرت السحلب اللذيذ الذي عشقه كلُّ من عادل وزياد
فأجلب الحليب الطازج وأطهوه جيداً
فنلتف حول المدفئة التي تبعث الحرارة والحنان ونقص على
أولادنا الحكايا

أمل

استغرقت رحلتنا بالباص ما يقارب تسع ساعاتٍ فتركنا حيث
الحدود الفاصلة بين مدينتي حلب وإدلب وأكملنا سيرنا مشياً
على الأقدام كيلو ميترات عديدة وقد ثقل علينا الحمل فرميت
حقيبتنا وخلعت حذائي لأحمل أخي حسام إذ يرهقه المشي
في سنواته الثلاث أما أمي فلم تدع غسان أبداً وجدتي كان
من نصيبها جاد فاستندت عليه وراحا يتمايلا يميناً ويساراً
حيث أعياهما طول المشي دون استراحة

وما سمعت إلا جاد ينادي سيارة يا أمل سيارة يا أماء الفرج
أخيراً

أشفت عليه بسن السبع سنوات وقد تحمل عناء السفر و
أدرك ما نمر له من صعوبة وهلاك

التفتنا إليه وقد سبقناهما لنرى سيارة بيك آب فيها عشرة
أشخاص على أقل تقدير ف نادانا السائق اصعدوا لا بأس
عليكم لا يمكنكم الوصول مشياً

نهضت بأخوتي الثلاث وساعدت جدتي كما أمي ثم لحقت
بهم.

وقادتنا السيارة إلى مخيمات اللاجئين في إدلب

وقد علم الله بحالنا وأحسن تدبير أمورنا فهياً لنا منظماتٍ
خيرية إنسانية دعمتنا بالملابس والمواد الغذائية وما يلزمنا
من الأغراض لتقينا برد الشتاء إلا أن برد الجوع لا سبيل
لإتقائه.

في بداية الأمر عانينا من القلة والشعور الدائم بالذل
والغربة كما عانينا من صعوبة التأقلم مع وضعنا الجديد
حيث أنني لم أرَ تراباً من قبل إلا في حوض مدرستي أما
بعدما آلت إليه حالنا فصرت على التحامٍ تام مع التراب
والماء الذي شكل جبلة طينٍ حمقاء لا أعرف لها علاجاً
حين تعلق بأقدامي وأقدام أخوتي الصغار
كما آلمني حزن أُمي وجدتي الذي جهلت كيفية التعامل معه
فوجدتني سجيناً الحرب و الخيام أسيرة المخاوف
والمهالك

وبعد أسبوعين بدأ الليل يفرش سواده في كل مكان وذلك
بقدوم العواصف الريحية التي اقتلعت خيمتنا من جذورها
والكثير من الخيام معها فما كان بالإمكان سوى أن تذهب
جدتي مع أخوتي إلى خيمة بعيدة بعض الشيء أكثر تشبيهاً
بالأرض من تلك التي هوت مع الهواء الجارف
أما أنا وأُمي فعلينا أن ننتظر حتى يصل الخبر إلى المنظمة
المسؤولة عن خيامنا

لسوء الحظ لم تتجبي ولدك الأول ذكراً ولو فعلت لكان في
مثل المواقف تلك سنداً يحمينا من التشرد والضياع هكذا
قلتُ لأُمي حين كانت تنفخ بكلتا يديها علّها تدفأ بتلك العملية
فابتسمت لي ابتسامة شاحبة وهي تقول

ما أوسع خيالك ربما لو حصل هذا لكان حاضراً مغيراً لما
هو عليه الآن

وسكتت لدقائق ثم قالت تُرى كيف هو عادل أحي هو أم....

ليتني لم أدعه يخرج بمثل هذه الظروف

فأخبرتها بخير يا أمي هكذا أشعر

وكانت كذبتني البيضاء تلك للتخفيف عنها فقد أرهقها
الخوف

أمي أتشعرين بالبرد إليك قبعتي وأيضاً حذائي مناسب
لقدميك وداخله فراءً يبتّ الدفء رغم اتساخه إلا أنه مفيد

- لا يا حبيبتي دعيه ،لم تبرد أطرافي فأظنها اعتادت هذا
الجو ولكن هذا لم يعتد بعد ولا أظنه سيعتاد يوماً

وأشارت بكفها التي تهتز إلى قلبها المشتعل بالنيران

- علينا بالصبر يا أمي انظري حولك يميناً ويساراً فهناك من
ذاق من لوعة الحرب ما لا تطيقه أنفسنا

ولا أرى حاجةً للاعتياد فالفرج قريب يا أماه قريب كقربي
لك أو أكثر

الصبر فقط الصبر هو ما نحتاجه بالحاح

-أباك يا أمل هو من كسر قلبي أكثر من الغربة والعراء والله
شاهد على قلبي

كما أن جدتك تعذبني بحزنها الذي لا يصرفه إلا لقاءها مع
من فارقت

أخشى عليها إن بقيت على حالها هذا من المرض أو

- لا يا غالييتي بإذن الله لن يصيبها مكروه ونحن معها
نساندها ونقف إلى جانبها أيام فقط وسنعود ويُقال أيضاً

أنها ستتحوّل لذكریات نقصها على البقية ونضحك
لمواقفٍ شتى فيها

إنه امتحان الله يا أمي لصبرنا فكيف تحبين أن نجدنا
ألا تذكرين كلامك حين مرض عمي زياد وانهارت حالتي
لتقولي ما أقوله الآن

- بلى يا حبيبتي امتحانُ الله هذا

وسيلقانا إن شاء الله صابرين قانتين محتسبين

ما أجمل الأمل وما أعظمك يا الله إذ وهبتي أُملي فأنتِ يا
أمل تذكريني بما أنسانيه الألم أن أذكره وقد استبشرت
بتبسمك خيراً منذ ولادتك

- نعم هكذا أنا و ما كان لي أن أفعل هذا إلا بأمٍ رائعة وأبٍ
عظيم أسأل الله أن يجمعنا به

انتهى حوارى معها وقد وضعت رأسها على ذراعها
وراحت بنومٍ عميق بينما أنا فكنت أبحث بين العواصف عن
نجمتي التي فارقتني كما فعل أغلب من أحبهم
ألقيت بغطائي على جسدها ورحت أنبش مواقف صديقاتي
من ذاكرتي

فكثيراً ما تبسمت في سري وأنهيتُ ذكرياتي بدموع اشتياقٍ
فكم أحن إلى جمعتنا .

وإلى حضن أبي

وحديث عمي الذي أشاركه فيه ويفرح بي فيشعرني أننا
أصدقاء من العمر نفسه

زياد

أنهكنا الحصار وقلّ الطعام والدواء وكاد أن ينفد لولا رحمة
الله بنا وبركته وصار كل من ظل معي محاصراً بمنزلة أخي
الذي لم تنجبه أُمي حتى أولئك الذين تعرفتُ عليهم بعد
الحصار الذي جعل منا أسرةً واحدة وكانوا أهلي الذين
ودعتهم ولا أدري إن كان لقائنا سيصير واقعاً أم يظل خيالاً
هكذا

وفي كل مرة يموت شخصاً تُنزع رُوحِي معه فكأن موتي
سيكون على مراحل

وما ألبث أوي إلى فراشي إلا وأتذكر مشهد أخي الشهيد
بإذن الله الذي دفنته بيديّ تحت تراب حديقة مهجورة مع
مئات الجثث مجهولة الهوية كما تمر ببالي العائلة كلها
تُراها ريهام زوجتي الحبيبة حية حتى الآن أم قتلها الربو،
الربو الليلي والتهاب القصبات المزمن الذي أصابها منذ
الصغر فكيف لها أم تصمد أمام هذه الروائح والهجمات
الهوائية التي تجتر معها الغبار

ووالدي المسن لا بد من تجديد دوائه فقد انتهى لا شك
أتمنى ألا يكونوا حاصروا منطقتنا كما فعلوا هنا

أما ولداي فمتأكدٌ أنهم على حالهم يضحكون بلا سبب ولا
يملون من اللعب والمرح في اثنين و عشرين ساعةً يومياً

أما الساعتين المتبقيتين فينامون فيها دون إرادةٍ منهم إذ لا
سبيل بعدها لمقاومة النعاس

ليلى

وفي الليل الغاشم الثاني على سقوط خيمتنا وبناء خيبتنا
كانت أمل تدعي الله بعد صلاتها أن يجمعنا ويلمّ شملنا كما
جمع النبي يوسف بأبيه يعقوب عليهما السلام ويصبر
قلوبنا كما فعل مع النبي أيوب حيث ألهمه الصبر على ما
ابتلاه وسألت الله أن يرزقنا الأمان والسلام في البلاد وأنا
أردد في سري آمين فقد غلبني النعاس ولا أعرف لحالي
تصريف بين نائمة ويقظة وإذ بجاد يركض مسرعاً ليتخذ
من حضن أمل وطناً مصغر يسكنه وفعل مثله حسام الذي
يقلده بكل شيء فقد أحبه كثيراً فاحتضنتهما أمل

بحبٍ وقد غطت الدموع خديها وكانت هذه المرة الأولى التي
بكت فيها أمل ولم تتمكن من كتم دمعاتها
أشرقت الشمس على هيئتها الجديدة التي آلت إليها بعد
الحرب

لتكون شمس الغربى الباهتة التي تبخل بتقديم الدفء و
تسلط الضوء على كل حال و لكنه ضوءها هذا لا يخرق
الأجساد كما كان يفعل من قبل فكأنها ارتدت ثوباً من
الخمول والإرهاق استيقظت فجذبني مشهد أمل وفي حضنها

حسام وجاد نائمين كما كانت نائمة هي الأخرى وسُرت
بهدوء العواصف الرملية التي أهلكتنا وشردتنا

فسارعتُ لنساء الخيام المجاورة اللواتي أعددن الفطور وقد
ذهبت رجالهم ليبتاعوا الخضراوات والبضائع المطلوبة في
أسواق إدلب وطلبتُ منهنّ المساعدة في إعادة نصب خيمتنا
وتمكّنا من ذلك لاحقاً حيث قمنا بتثبيتها قدر الإمكان إلا أن
أتى مندوبٌ من المنظمة ومعه عصبةٌ من الرجال عملوا
على تركيزها بإحكام وأخبروني لو تمر سيارة بها لن
تحركها

فابتسمتُ وكأنني أسكن عقاراً بالغ الجمال ينقصه المدح
فقط

ونمنا تلك الليلة بخيمتنا فكانت الليلة الأكثر أماناً وسلاماً بعد
مغادرتنا لحي الفردوس .

أمل

بعد تلك الليلة الآمنة التي بتنا فيها بخيمتنا بعد أن أحكمنا
وضعها في النهار

جاء الصباح التالي حاملاً معه الغيوم السوداء التي شاركتنا
بكاءنا بأمطارها الغزيرة حيث طافت خيامنا ووقفنا جميعاً
على منطقة أكثر بقليل ارتفاعاً من قطعة الأرض التي كانت
فيها الخيام وحفظتُ مهمتي عن ظهر قلب فأمسكتُ بأيدي
أخوتي

كما أسندت أمي جدتي العجوز وبهذا اليوم المشؤوم شهدت
إحدى أوراق حلمي تسقط سقوط حرف علة بعد أداة الجزم
وذلك حين انزلت قدم جاد الصغيرة تحت أشبار من الماء
وراحت الماء تسحبه خلفها وبعد محاولات عديدة فاشلة
زفر زفرة مودعة ليكون شهيد الخيام ذو الرقم سبعين
تقريباً وذلك في مخيمات إدلب فقط

شعرتُ به يأخذ قلبي معه هناك تحت الماء فغرقتُ بالأحزان
والآلام كما أن أمي حزنت أي حزنٍ عليه فكادت أن تفقد
النظر بعينيها من شدة البكاء ولثقل حلمي الذي ألقاه عمي
زياد على صدري فكان عليّ أن أبتسم وأزرع التفاؤل الذي
افتقدته في قلب أمي وجدتي وساعدني على ذلك إيماني
الكبير بالله الذي لا يخيبني ولا يحرمني أجراً ولا ثواباً
وبعد شهور شاع خبر اللجوء إلى تركيا بين الناس في
المخيمات وذلك بشروط قد طابقت حالتنا بحيث من يتقدم
بالطلب يجب أن يحقق

- أسرة لا فرد

- أسرة لا شاب فيها ولا رجل

- لا أحد يمكنه العمل ولا ينال راتب شهري

- الشهادات العلمية مرفوضة وذلك لأنهم يستطيعون العمل
في مكانهم

عرضتُ الأمر وقد زاد حماسي وعلت همتي عليّ أحقق
حلمي هناك

وربما أقابل أبي وأنا رافعة الرأس وأناقش عمي بفصاحة
المتعلمين

لكن جدتي رفضت بترمتٍ و تعصب فنهرتني لمجرد تفكيري
بالأمر

وحين حاولتُ وأمي إقناعها

جاءنا ردها الذي فاجأنا بحدته وقسوته ولم تكن هكذا قط
فقد تغيرت جداً

-كيف لنا أن نغادر بلدنا ونحن لا نعرف أي خبر عن البقية
أحياء أم أموات أنسيتما عادل رب أسرتكم لا داعي لأذكرك
بجدك وعمك يا أمل فمن ينسى أبيه الأولى به أن ينسى
أقاربه بالله عليك دليني على الطريقة التي نسيت بها أتدري
لا لا أريد أن أنساهم أبداً فإن لم يكونوا حاضري فهم
الماضي والمستقبل إن كان معاً

-جدتي ما بك أتظنين بي هكذا حقاً أيعقل أن أنسى أبي أو
جدي وعمي كيف يخطر على بالك أن أفعل هذا يستحيل ما
دمت حية وبني نفس يطلع وينزل لكنها مشيئة الله

أنت أخبريني أتعجبك العيشة هنا بين الخيام

-هذه الخيام من حولك ليست أقل ألماً من الغربة والفراق يا
أمل

إن كان الأمل ضعيفاً هنا في أن تصلنا أخبارهم فإنه معدوماً
في الخارج

إن شاء الله أن يجمعنا فسوف نلتقي ولو في المريخ وإن
كان الأمر أن نفترق للأبد فلا والله لن نجتمع حتى في المنام
اغربي عن وجهي قبحك الله أيتها القاسية اللعينة وهذا ما
قد أخذت به عن أمك

وكانت المرة الأولى التي تشتمني جدتي وتتحدث عن أمي
بكلام كهذا فمنذ بداية زواج أمي من أبي أحببتها جدتي كما
تحب ابنتها التي لم يقسم الله أن تُرزقها

أمي: ألا تقولين شيئاً لتقتنع؟ فأعرف أن الوضع هنا يسوء
بنظرك إذ يغمر مستقبلنا الوحل الذي أودى بخيمتنا وذهب
بأخي إلى اللا لقاء أم كان لك رأي مغاير

-أنا.... لا تختلف عليّ الأراضي ولا فرق بينها وقد مرت
الشهور على وصولنا فلا الجو يناسبنا إما برد يهتك بنا أو
حرّ يحرقنا فالأولاد في خطرٍ دائم ويؤلمني هذا ولا المنظمة
بدأت بالبناء الذي وعدتنا فيه مذ وصولنا ربما صدقوا
بوعدهم ولكن الوفي به يكتب بعد رحيلنا ومن جهةٍ أخرى
ثمة خبر حسن أو غيره لم يصلنا منذ خروجنا فلم نبقى بعد
الآن وبيدنا سبيلٌ للفرج

-أيتها المجنونة ما هذه الحماسة أبتلك السهولة يهون عليك
زوجك وأنا التي كنت أصفك أمامه بالعاشقة الحنون التي
تخشى على زوجها من النسيم كيف للعشرة أن تضع معكم
قالت جملتها تلك وقد جرح قلب أمي الذي كُسر عدة مرات
فخرجت من الخيمة قاصدةً لون السماء فرفعت رأسها
وراحت تبكي بحرقة شديدة

ثرية

حين أخبرتني أمل بأمر خروجنا شعرتُ بالهزيمة والانكسار
فمن أول عمري وأنا أكره السفر وأذكر مرة أرسلت لنا
أختي سميرة دعوةً لحضور زفاف ابنها فتحمس أبو زياد
وأخبرني أنه بحاجة للخروج وقت يستمتع فيه ويروح عن
نفسه فقد أتعبه عمله أما أنا فرفضت أن أخرج وقلت له لا
أريد الابتعاد عن هذا الحي فقد تعلقـت روعي فيه وبات
أكسجيناً لي فكيف للمرء أن يعيش بلا أكسجين رغم سهولة
الطريق ويسر السفر أما عندما ساءت أحوالنا وضائق بنا
بلدنا فجاءتني أمل بقولها وإصرارها فكأنها سحبت العقل
من رأسي وصرتُ أتفوّه بكلاكٍ لم ألقِ له بالاً

وآلمني حديثي معها إذ جرحـت ليلي بالكلام وكنت أذبح
نفسي من الداخل وأنا أشتـمها فهي ابنتي التي لم أدها
وبعد خروج ليلي استطردت أمل حديثها

هوني عليك يا جدتي فقد أصاب أمي من الألم ما يرهقها
فقدت ابنها قبل شهر بتلك الخيمة التي تدافعـين عنها
وترغبين ببقائنا فيها وقبل ذلك تركت زوجها لعبةً بين أيدي
المجرمين اللذين لا يعرفون الله

أنا وأنتِ لدينا بالإيمان إحساسٌ لا يفارقنا أنه حي يُرزق أما
أمي فتخاف عليه ويراودها الهم والغـم ولم يكن ذنبها

تشريدنا وقد منّ الله علينا بفرصةٍ نرتاح قليلاً أنكفر النعمة
يا جدتي

فقلت لها بعد أن عاد لي الوعي وأدركتُ الحال الذي تصفه
-معك حق في هذا لكن قلبي كلّ وملّ الانتظار يا أمل أخشى
الموت قبل أن أراهم كما أخشى الحياة إن طال البعد أكثر
اخرجوا أنتم برعاية الله وحفظه وأنا سأبقى هنا أنتظر خبراً
منهم

-لا يا جدتي يستحيل ما تطلبين إن أردتِ القضاء على
مستقبل أحفادك فافعلي

حلمي الذي وعدتُ أبي بتحقيقه بأن أكون طبيبة ناجحة
فأرفع رأسه بمساعدة المحتاجين دعم الفقراء ومكافحة
الأمراض إن آثرتِ البقاء فلا الحلم يتحقق ولا نحن ننجوا.

-وكأنك تضعين صاعين أمامي أحدهما من الزيت والآخر
مملوء بالحليب وكلاهما يغلي فتطلبين مني أن ألقى بقلبي
في أحدهما الذي أختاره

-الأمر صعب ولا أخفي عليك القرار لم يكن سهلاً لكنها فترة
وتمضي لن تبقى طويلاً هناك كما أنها فرضية مبدئية يا
جدتي سنسجل الآن بملء الإستمارة وهنا احتمالان قيد
الحدوث إما القبول أو الرفض وأين يكون القدر يكون الخير
ألا تذكرني هذا كثيراً من قبل ربما هذه المرحلة ضرورية
لاجتماعنا

-سجلي ما شئتِ ولله لن يختار لنا إلا الخير

ليلي

بعد شهرين طويلين مرا كعمرٍ كامل كانت رحلتنا إلى تركيا
حيث قبلوا طلبنا

وانقضت عشرة شهور مليئة بالمحاولات التي تؤول إلى
الفشل فتسحب معها الصدمات والخيبات إلينا

وقد شهدت حدود سوريا رحيل أُمي الثانية التي رفضت بكل
ما تملك من قوة أن تخرج من البلد الذي عاشت فيه تفاصيل
حياتها حيث انتشت من وراء أمل وقد سقطت صورة قديمة
للعائلة من يدها التي هرب عصبها وهمست لأمل في أذنها
وقد قصدت أن أسمع قولها حين عرفت أن الموت قريبٌ

منها فكانت كلماتها تصقع قلبي وتمر على جروحي بالملح
فانفجرت باكيةً لقولها

-حلمك يا أمل لا تتخلي عنه وأمك لم يبقَ لها معينٌ سواكِ
هذه وصيتي أما جدك و ولديّ اللذين تمنيت رؤيتهم ولو
للحظة فلا تهدأي حتى تعرفي أين وضعتهم الحرب وعلى
أي حال

صرخت أمل بصمت و بكت بدموع جافة بكت الحرب أبيها
عمها وأخيها والآن تبكي جدتها التي ماتت على أمل لقاءٍ لم
يكن ولا نعرف إن كان سيصير مستقبلاً

أمل

قد رحلت جدتي وتركت على عاتقي حملاً مضافاً إلى حملي
الثقيل فقد أحزنني فراقها وساد الظلام داخلي من كثرة
المحاولات الفاشلة

وأخيراً تمكنا من عبور الحدود فدخلتُ تركيا ومعِي أمي
وأخوأي حسام وغسان والتحقت فور وصولي بمدرسة
ثانوية للإناث من حيث قطعت دراستي أما أمي فقد كرّست
وقتها للعمل في تحفيظ القرآن الكريم لأولاد المنطقة التي
كان فيها مسكننا الجديد

وحسام وغسان دخلا المدرسة لإكمال تعليمهم
وفي مدرستي الجديدة تذكرتُ أجمل أيام عمري مع
صديقاتي الثلاث اللواتي حلمنَ بما يُسمى بالمستحيل وعلى

هذا اجتمعنا في المرة الأولى فكم حلمت أن يجمعنا السبب
ذاته مجدداً وتساءلت عن أحوالهم فماذا عساهنّ يفعلون

زياد

جازفتُ بتنفيذ الخطة التي وضعتها مع رفاقي في حي
الفردوس حيث تسللنا خطوةً تلو الأخرى إلى المقر الذي
كان للعدو فأخذنا ما يكفيننا الجوع والحاجة واستعدنا به ما
تبقى لنا من قوة

وقد رأنا اثنان من الحراس ليهبط قلبنا ويمكث بين أقدامنا
إلا أن وقعوا ضاحكين ضحكاً هستيرياً وراحوا بنومٍ أراحنا
وقل من خوفنا فسارعنا بالهروب على ما بدا لنا أنهم
بالغوا بشربهم للخمر وذلك لحسن حظنا

وبعد شهر من الجوع الذي نهش قلوبنا أعدنا الكرة نفسها
لكن الجرة لم تسلم في كل مرة وهذه المرة بالتحديد عثرتْ
علينا قواتهم فقتلوا أكثر من نصفنا وتمكّنّا نحن البقية من
الفرار من بين أيديهم آخذين معنا القليل من الطعام والدواء.

أمل

اقترب اختباري للشهادة الثانوية الرحلة التي تسبق دخولي
للجامعة فصار تحقيق حلمي قاب قوسين أو أدنى

درستُ لمادتي الأولى وقد وجدت صعوبةً في الدراسة التي
ابتعدت عنها لوقتٍ عصيب وكان للظروف القاسية التي
عشتها دورٌ في إبعادي عن الكتب وإرهاقي حين بدأتُ
دراستي وقد كنت قبل الحرب من الأوائل في صفي فأفقدتني
حالتي التي ساءت شيئاً فشيئاً من حماسي وسرعة
إستيعابي وهذا ما كان في بداية الأمر

أما فيما بعد فقد ساعدني هدفي البعيد المقرب وغايتي
النبيلة على استرجاع ذاكرتي وملاحظتي وحفظي وذلك
بالتدريب والتمرين المستمر حيث أنهُك جسدي وسهرتُ
ليالي طويلة ودعمتني أمي ذاك الدعم المادي والمعنوي
الذي أحتاج

وبعد تقديمي لآخر مادة تذكّرت صديقاتي اللواتي اعتدنَ
على العودة معي إلى منزلنا وتكون أمي قد أحضرت لنا ما
لذ وطاب من الأكلات والحلويات وذلك احتفالاً بانتهائنا من
هذا الحمل الثقيل

كم اشتقتُ إليهنّ واشتقت لتحقيق حلمنا الذي سيجمعنا إن
قدر الله

أكملتُ طريقي راکضةً إلى منزلنا في الريحانية وأنا أحاول
في الضحك الذي نستنه شفتاي.

ليلي

كادت نبضات قلبي تقفّذ من بين أضلاعي وتطوف في
أرجاء جسدي آخر مادة لدى أمل اليوم سينتهي تعب
الامتحان

طرقت الباب لأفتح لها وهي تنادي أماه أماه لقد انتهيت من
الامتحان وهمه

- الحمد لله الذي أدخل السعادة على قلوبنا بعد أن خرجت
خروجاً طويلاً

أسأله تعالى ألا يضيع لك تعباً بذلتيه وأن يمنحك بقدر ما
عانيت في السنين الأخيرة فأنت يا أملي تستحقين الخير
-ألا تأخذني أُمي إلى مكانٍ ما فأرفقه عن نفسي التي أرهاقها
الامتحان

-هيا غيري ملابسك لنذهب فنتسوق معاً

أحبت أمل أن تباسمني بقولها

-سأفعل ولكنني لن أذهب قبل أن أتناول الغداء الذي اعتدته
بعد امتحاناتي السابقة

ففاجأتها بردي

-أتقصدين الملوخية مع الأرز والفطائر بالجبن الذي
تشتهينه

- ماذا ما هذا الدلال كله يا أُمي

قالتها و هي تكشف الصحن لتتناول غداءها بشهية
أحببتها وأكملت لقد اقترب تحقيق الحلم يا حبيبتي ستصير
التي أمامك طيبة رائعة تعجبك ما رأيك ألا يليق بي!!
سكتُ برهةً فقد وضعت يدها على جراحي و ضغطت
لتؤلمني

عن أي حلم تتحدث تلك البريئة ومن أين سأتيها بالمال وقد
صرفنا الكثير على عمليتي الأخيرة لإزالة الدهون التي
سببت لي الأمراض

وسرعان ما حولتُ عبوثي لابتسامةٍ شاحبة وقلت بلى تليق
بابنتي أعلى المراتب ولكل مجتهدٍ نصيب

لكن أمل تمكّنت بما تملك من قوة الملاحظة من انتباهها
لحالي الذي رغبتُ بإخفائه فقالت لي

- ما بك يا أمي أتتكلفين أمام أملك ماالذي يشغل فكركِ
شاركيني به هيا

لا أريد تنغيص فرحتها هذه التي لم أرَ مثلها فرحةً حقيقية
منذ سنين

- والدك يا أمل وعمك يشغلا ذهني ويتعبا فكري

- سيجمعنا الله يا أمي في يومٍ عساه قريب

ولكن هذا منذ أعوام لا أعرف أجدني أشك في هذا السبب لا
أعتقد أنه وحده الذي أزعجك

- عجباً من حالكِ تحلمين بالطب وتشكّين كالمحققين والقضاة

- نعم يا أمي فالأول ورثته عن عمي زياد لكثرة تعلقي به
وأعرف أنه حلم كما أحلم منذ أعوام طويلة لكن ظروفه
المادية منعه من دراسة الطب التي طمح لها أما الثاني فقد
أخذته عنك ألا تتذكرين سهرات تحقيقك مع أبي حين
تلحقين سؤالاً بالآخر دون أن يفوتك أدنى حدث جرى معه
-والله هو من عودني على هذا

منذ لحظة تعارفنا وهو يقصّ عليّ أحداث يومه بالتفصيل
فما إن أراه قصر إلا وأسأله أن يكمل خشية أن يكون
مكروهاً ما قد حصل معه ولا يريد إخباري فلا يجد من يبوح
له فأكون السند الذي يساعده ويحمل معه المتاعب
أما الأفراح فلي نصيب منها بتحقيق أو دونه
وبهذه الإجابة أجّلت أمل شكوكها إلى وقت آخر كما ساهم
جوعها في ذلك

أمل

تناولتُ غدائي الشهوي وأنا أنظر حلمي الذي يقترب
تجولتُ مع أمي وأخي غسان بالأسواق المتواضعة أما
حسام فقد اشتدّ ساعده وبدأ العمل مع جارٍ لنا يدعى أبو
سمير صاحب فرن الخبز قرب منزلنا
تأملتُ أوجه العامة البائسة وكم آلمني مشهدهم وقد تآقت
نفوسهم لظل الوطن وكرهوا من الغربة ما كان لهم.

بعد شهرٍ وثلاثة أسابيع صدرت نتائج البكالوريا ومن بعدها مفاضلة الأفرع الجامعية حيث نجحت بمعدل أعلى من الحد الأدنى لفرع الطب البشري بعلامتين وكنت قد جمعت مالا عن طريق تدريسي لطلاب في مرحلتهم الابتدائية يمكّنني من دفع الرسوم المالية للتسجيل في فرع جامعي وتذكرت أن الأفرع الطبية في البلاد الأوروبية تتطلب أقساطاً مالية باهظة مقدرة بعملتهم "الدولار"

وكان هنا أصعب قرارٍ أتخذه في حياتي عليّ أن أختار حلمي أو راحتي فقد عرفتُ أنني لن أحصل على قسط الطب الأول إلا إذا سلمنا بيتنا وعدنا لعيشة الخيام وبعنا أساور أمي التي خبأتهم لأيامٍ شديدة الفقر

وأخيراً اتخذتُ موقفي المُحايد ورحت إلى أمي التي لم تبد رأيها بقرارٍ مصيري كهذا حتى تترك لي الفرصة بالتفكير وأخبرتها .

-أمي لقد قررت أن أدرس في معهد التخدير الأقرب للأفرع الطبية كما أن قسطه رمزياً ومقدوراً عليه

-هذا نصيبك وتلك إرادة الله والخير بالخواتيم يا غاليتي

سجّلت اسمي بمعهد التخدير الذي يبعد عن سكني كيلو ميترات عديدة وانضمت لراكبين الباص لينقلني كل يوم بالذهاب والإياب.

استطعتُ أن أدخل القلوب وذلك بفضل الله الذي منحني شخصية ذكية ومحبوبة حيث كان يومي الأول في الدوام بمعهد التخدير حيث أن المبنى مشترك بين الكلية والمعهد

فكان بيني وبين حلمي جدارٌ واحد ولم يكن المبنى هو
المشترك وحسب بل المدرسين وأغلب المواد كانت للكلية
والمعهد معاً

فعند حضوري لأول محاضرة رغم أنني لم أعتد بعد أجواء
الجامعات إلا أن المحاضر أعجب بطريقة محاوراتي
وتفاعلي بالنقاش حول الأفكار الرئيسية فأخبرتني الطالبات
أنهن ظننَّ أنني درست المحاضرة آلاف المرات قبل هذا

راما

سَحَرَتْنَا أَمَلٌ بِذِكَائِهَا وَقَدْ تَفَوَّقَتْ عَلَى نَفْسِهَا مِنَ الْمَحَاضِرَةِ
الْأُولَى.

وقد شغلت حيزاً في قلوب الجميع طلاباً ومدرسين
فحاول كل الطلاب التقرب منها شباناً وبنات وكانت ودودةً
مع الجميع مجرد أن تسألها إحدى الفتيات سؤالاً تستطرد
شارحةً المحاضرة كلها ولذلك كانت الأكثر كاريزما لدى
الرفاق.

وراحت الأطباء تحدث طلابها بالكلية عن تلك الفتاة الذكية
التي تفهم الكثير وتملك ثقافةً واسعة وأخلاقاً حسنة فبكل
الدفعة لن أجد لها كارهاً أو حاسداً

أنس

فاجأتني تلك الطالبة المميزة بأناقة تفكيرها وجمال هيئتها
وعندما أنهيت المحاضرة سألتها عن معدلها بالمرحلة
الثانوية فأخبرتني به وقد ازداد استغرابي وعجبي من حالها

■

تركتها وسألت راما في ساحة الانتظار التي كانت في وسط
الجامعة عن سبب اختيار صديقتها أمل للمعهد رغم توفر
الكلية

فأخبرتني بسوء وضعها المادي الذي كشفت عنه حين اضطرت
أن تزورها لاستعارة دفترها

كانت تتحدث ولم تأبه بشرودي وأنا أفكر بطريقةٍ أساعد تلك
الفتاة الرائعة التي استولت على لُبِّي

ووجدت أن أعرض عليها مبلغاً من المال وهكذا فعلت
باليوم التالي حيث قدمت لها المال و سألتها قبوله كدين
وستعيده لي فور تخرجها

لكنها أبت بكل ما تملك من كبرياء وعزة نفس ورفضت
المساعدة وهذا ما جعلني أزداد هياماً وإعجاباً بها

حيث قالت لي

أستاذ أنس لا أريد أن أردّ طلبك وما جزاء الإحسان إلا
الإحسان ولكنني بنعمةٍ من الله ولا أحتاج المال بالقدر الذي
أحتاج وأنتفع بمعلوماتك وأكرر الشكر والتقدير لك أستاذي
الفاضل

أمل

في نهاية السنة الدراسية الثانية في المعهد أجريت اختباراً
عملياً وآخر نظرياً فكنت أقترّب من حلمي بتفوقي وارتفاع
درجاتي

وبصدور النتائج حيث كنت الثانية على دفعتي وذلك بمعدل
سبعة وتسعين وثمانية أعشار، وبالتالي يمكنني النقل إلى
كلية الطب شعرت بلحظةٍ سبقت وتُعاد

فأخبرتني أمي بحسن حظي

- قد كتب الله لك هذا المستقبل فانقلي أوراقك

-ماذا ومن أين نأتي بالأموال

- اتصلت زميلتك راما وأخبرتني أن أستاذاً لك في المعهد
اسمه أنس تحدث إلى المدير بشأنك وأخبره عن ذكائك
فشرحاً الوضع لمدير منظمة ال DRFS فتكفلت بتكاليف
دراستك ومعك اثنين من الطلاب الأوائل طيلة سنواتكم
الدراسية شريطة ألا يتدنى معدلكم السنوي تحت الحد الأدنى
ثمانين.

- أتقولين الحق بالله عليك يا أمي أهذا ما حدث

- بلى هذا ما حدث بالتفصيل مبارك يا طبيبتي الجميلة

تساقطت دموع الفرح من عيوني وتمنيت لو أن أبي وعمي
معي

وفوراً تذكرت صديقاتي فازداد حماسي ورغبتي في الإقبال
على حلمي

وفي الساعة الثانية عصراً بينما كنت أدرس أخي غسان مع
طلابي حيث صار بعمرهم بعد رجوعي من الجامعة رنّ
الهاتف وجاءني صوتها الذي يحمل الهرم والقدم تقول
-السلام عليكم أهذا هو بيت السيد عادل الحميد والد أمل !!
اضطربت دقات قلبي اسم أبي بعد هذا الوقت الطويل لأبد أنه
خبرٌ منه

-نعم خالتي هذا هو تفضلي

-أعرّف عن نفسي أولاً أنا ربّعة القصير أكون عمّة
لأستاذك أنس القصير وقد أخبرني كثيراً عن أخلاقك وذكائك
كما أعجبه شكلك فتشوقت لمعرفةك وعجلت لطلب يدك
للزواج منه فأخبرني عائلتك وأعطني موعداً لزيارتكم في
حال تمت الموافقة

ارتبط لساني وقد خاب ظني إذ رأيت أنه الخبر من والدي
فترددت قبل أن أقول بصوتٍ يرتجف

-شكراً لك يا خالة على هذا المدح الجميل ولكنني لست من
أهل البلد وغداً يتحسن الحال في سوريا وأعود مع العائلة
حيث مسكننا الأصلي وطفولتي وأحلامي التي تسكن هناك
أسأل الله أن يرزقكم بمن هي أحسن مني الفتاة التي تستحق
الأستاذ أنس بأخلاقه وحيائه

- حالنا يا ابنتي كحالكم ليست تركيا موطننا إلا أننا ننتظر
هدوء الأوضاع بسوريا لنعيش بدمشق حيث لا أمل بالعودة
للجولان التي خلقتنا فيها لا أجد في ذلك سبباً مقنعاً لرفضك
لم أدر حقيقة ما الذي يمنعني كل ما أدركه هو صورة أبي
، عمي، رفيقاتي الثلاث حلمي أيعقل أن أضحي بكل هذا من
أجل الزواج لكنه يستحق هذا الذي تحلم فيه كل الفتيات
زوجاً ربما هذه المرحلة هامة لتحقيق حلمنا فلا أظنه
سيوهن عزيمتي بل سيكون سنداً لي ويحمل معي أعباء
حلمي وطني أهلي صديقاتي تلعثمت كثيراً قبل أن أقول
باندفاع وثقة لا أدر كيف باغتتني فجأة فما كنت أعرف
مثلها بي

- خالتي أنا مبدئياً أوافق على طلبك فولله لن أجد كل عمري
مثل الأستاذ أنس شريكاً أقاسمه مرّ الحياة قبل حلوها
ونعيش معاً كل تفاصيلها فنصل لذروة النجاح سوياً ولكن
الرأي لأمي حين ترجع من المسجد سأخبرها باتصالك
وأنظر رأيها

- نعم الرأي يا أمل يشهد الله بأنني فرحت بك أي فرح فقد
أحببتك من كثرة مدح أنس بك وأنا يا بنيتي أعتبر أنس ولداً
لي فقد كبر على عيني حيث توفيت أمه حين مولده وعاش
واحداً من أهل بيتي وما رأيت في أبنائي كوعيه وطموحه
وأنت أيضاً إن تم الأمر ستكونين ابنتاً لي

ليلي

في وقت عودتي من الجامع وقد كان الجو حار جداً رحت
أخلع ثيابي والتعب ينال مني دخلت أمل غرفتي واستأذنت
قبل أن تفتح الحديث معي

-أمي ما رأيك إن تقدم أحد ما لخطبتي

استغربت لهجتها وقلت

-أبحث عن سعادتك كما تبحثين عنها بل وأكثر ولا أجدني
من نوع الأمهات اللواتي يخفن أن تُخطف بناتهن من بين
أحضانهن فأنا على قناعة تامة أن من يخاف ربه لا يبعد
زوجته عن أمها وخصوصاً إن كان يحبها على الحقيقة وإن
كان هناك من سيسعد قلب ابنتي ويساعدها على تحقيق
حلمها فلا أرفض

-نعم لست كبقية الأمهات كما أنني لست كغيري من البنات
اللواتي يُخطفن من أمهاتهن

مازحتها بقولي أساعدها على تخفيف توترها حيث لاحظتُ
العرق يتصبب من جبينها وقد ازدادت وجنتيها حمرةً

-لم هذا السؤال في هذا الوقت ما المناسبة أسئمت العيش
مع أمك فما كان لك إلا أن تفترضين العريس

- لا والله يا أمي ولو ظللت العمر كله بجانبك لن أملّ لكنه
الحقيقة لا فرضية في الخيال

الأستاذ أنس الذي سخره الله سبباً لدخولي كلية الطب يطلب
يدي واليوم اتصلت عمته وأخبرتني فما الرأي عندك
جاءتني بخبرٍ لم أفرح بمثله منذ سنين فقد أعجبني الأستاذ
أنس

-رائع يا أملي لم أكن أعرف أنس هذا ولكن ما أعجبني بذلك
الطريقة فمن تقدم بطريقة كهذه التي يسمونها النمط
التقليدي القديم وخصوصاً أولئك المثقفون أما هذا رغم
تقدمه بالعلم وكونه مدرس بجامعة فلا بد أنه ميسور
الحال مادياً وأراك راضيةً فلو لم تكوني كذلك لما أخبرت
أمك أصبتُ هذه المرة أليس كذلك!!

ومع غمزةٍ وابتسامةٍ قلتُ جملتي تلك بتهكمٍ فازدادت خجلاً

- لا أعرف الكذب والتلاعب يا أمي إنه وقع في نفسي كما
فعلتُ معه حيث وجدت فيه الخلق والوسامة و الشهامة
التي تفتقدها شباب عصرنا كما أنه في لقائنا الأول
ذكرني بأبي جمعنا الله وإياه على الخير

فله تفاصيل والدي ذاتها حين يناقش ويشرح ويتفانى رأيت
فيه أبي الذي اشتاق لحنانه حين عرض عليّ مبلغاً من
المال وأذكر ذات مرة سقط شابٌ معنا على الأرض إثر
دوارٍ عنيف وكأنه عانى الإرهاق والتعب قبله فسارع
الأستاذ أنس لحمله أمام كل الطلاب رغم وجود أصدقاء
الطالب إلا أنه أبى أن يتركه فأخذه إلى المشفى كما نُقل لنا
أنه ما قبل أن يتركه إلا بعد أن طمأنه الطبيب على صحته

عندما راحت أملي تصف فارس أحلامها القادم إليها وتذكر
ما أعجبها منه ذاك الحديث اللامنتهي شعرت أن قلبي
سيطمئن عليها معه ونهضت بسرعة أتصل بالرقم الذي
ظهر لي على الكاشف لأخبر أهل الشاب بقبولنا
أمل

اتفقت أمي مع العمة ربيعة على موعد الزيارة ومن ثم
الخطوبة

فكانت خطوبتنا مختلفة عن كل الحفلات التي حضرتها سابقاً
إذ لم يحضرها أحد من أهلي سوى أمي وشقيقي غسان
وحسام أما أنس فقدم مع أبيه مازن وعمته ربيعة وأبسنى
الخاتم ليعلن ارتباطي به مدى العمر فشعرتُ بارتياحٍ يرافقه
القلق ولكنني أحببته كما لم أعتقد أن أحب زوجي من قبل
وكان ملحاً في تعجيل زفافنا إلا أن مخاوفي كانت تزداد شيئاً
فشيئاً عن ولدٍ في الغربة لا وطن له ولا أصول كيف يكون
أصدقاءه بماذا سيحلم من أين يأتي بالحماس

ويحي كيف سأسبب لطفلٍ آتي به إلى حياةٍ كهذه والله لن
يطاوعني قلبي أن أفعلها مع الغريب فكيف أفعل مع ولدي
قطعة من جسدي كما أنني أظن أن الولد سيعيق تقدمي
ويكون عثرةً في طريقي

فكثيراً ما حاولت تأجيل الأمر حتى ضجر أنس من تأخيري
حيث لا يرى له مبرر مُقنع وحين اتخذت من دراستي حجةً
لي فأخبرني بأنني قوية بقدر ما يكفي للتنسيق بين الدراسة

والحياة الزوجية فصارحته بما في قلبي اتجاه مسألة
الإنجاب وأني أرفض حالياً وبشدة أن أجني على طفلٍ
أحضره للحياة

ففاجأني بردة فعله حيث قال

سامحيني يا أمل إذ لم أخبرك حتى الآن فأنا أحببتك حباً لم
أكن أشعر فيه مع أحدٍ غيرك وأريد علاقةً متينةً و طويلةً
تربطني بك ولكنها ليست بطفل أكره الحرمان والفقد فقد
حُرمتُ أمي في وقتٍ مبكر في حين ضربت الطيبة على
ظهري لأبكي وأبشرهم بحياتي التي بدأت انتهت حياة أمي
فنزح ابنها روحها معه أرأيت مجرماً أنا منذ لحظات عيشي
الأولى

كما حُرمتُ الأصل الذي تتحدثين عنه فكتب علينا نحن أبناء
الجلولان التشرد والعيش في اللاوطن لذا لا أريد الأولاد
فأخشى مفارقتك بحدثٍ مشابه لما جرى مع أمي
حين قالها غص بالبكاء ولكنه تماسك أعصابه أمامي
فتألمت لحاله ولعنتُ الحرمان الذي ألمّ بنا نحن الاثنين منذ
الطفولة ألف مرة

وما كان بوسعي إلا أن أمسك يده برفقٍ وأطيب خاطره
بقولي

- أنا والله أحببتك وقد ظننت أن قلبي هذا الذي حطمته
الحرب اللعينة و الظروف الشنيعة التي جاءت تباعاً بلا
توقف لم يعد صالحاً لشيء اسمه الحب ولكنك أوقعتني في
حبك فلکم أتمنى أن نتزوج في أقرب وقت ولكن حلمي يا

أنس حلمي هذا مع صديقاتي أجده بيننا رأيي لو نؤجل
الأمر قليلاً فابتسم لي ليريح قلبي وأجابني بحماسٍ وشجاعة
- حبيبتي مَنْ قال أنني سأقف عائقاً وأعرقل الطريق بكِ إلى
حلمنا معاً أتعرفين يا أُملي حلمكِ هذا هو ما زاد من إعجابي
بكِ فبالظروف هذه لن يقدر إنسانٌ على حلمٍ وطموح كالذي
تحلمين ويعمل المستحيل ليمشي إليه إلا مَنْ كان جاداً
يملك الإيمان و الموهبة وهذا ما ميزكِ عندي عن بقية
الفتيات من حولكِ أعدكِ يا أُملي أن نصل للذروة معاً وإن
كنتُ لا أفهم إلا القليل بعيداً عن اختصاصي في الكيمياء إلا
أنني شعرتُ بالشغف لتحقيق حلمكِ وكأنه بالعدوى انتقل لي
فصرت أحلم كما تحلمين

أراحني كلامه فقلت قبل أن أتردد مجدداً ودون أدنى ارتباك
-فليكون زفافنا الخميس القادم وعلينا أن نخبر أهلنا بقرارنا
فاجأته بصراحتي وراقبتُ ملامحه حيث انفرجت أساريره
وازداد جمالاً فأومى لي بالموافقة وحضنني بحنان وهذا ما
كان أفضل من ألف كلمة يقولها إذ عبّر بالمشاعر التي
وصلت إليّ من فورها

وكان الزفاف بسيطاً كأني شخصين أحبا بعضهما وتعهدا أن
يكملا عمرهما معاً رغم قسوة الظروف وتجاوزنا معاً
مرحلة اليأس التي تنتاب الجميع في ظروفٍ لا تمثل جزءاً
من ظروفنا.

زياد

لقد أتعبتنا سنين الحصار التي أذاقتنا الألم بكل ألوانه بان
علينا الكبر والهرم خلال هذه السنوات التسع التي كانت
مضاعفة لكل حدثٍ مرّ فيها أضعاف ما يحدث خارجها موتٌ
وحصارٌ وألمٌ، وجوعٌ وتشردٌ، خطرٌ وقلّةٌ هكذا بل وأكثر
مرت علينا بين قيود الحي التي أسرتنا داخل الظلمة التي
كادت أن تقضي علينا واحداً تلو الآخر

ولكنّ مَنْ كتب الله له العمر لن تقتله الشدة مهما افترست
والتهبت حيث مكّنا الله من الصمود وبقينا نصارع الحرب
لنعيش حياةً تشبه الموت الذي نحاربه

أمل

أكملتُ سنواتي الجامعية بصعوبةٍ بالغةٍ كوني المسؤولة عن
أهلي وبيتي كما ساعدتُ أخي حسام بدراسته الثانوية حيث
اتخذتُ من تجربتي الدراسية قواعداً شتى ولا بد من
احتوائه بهذا العمر الذي يجعل صاحبه يظن أن الحياة عبارة
عن مجموعة أحلام ويرى من نفسه الفارس البطل الذي
يخترق الجدران ويفوق الغيوم يشق الطرقات ويخوض
البحار فقد شاهد أفلام الكرتون بصغره وعزم على التطبيق
عملياً

حاولتُ أن أشرح له مغزى الحياة وعناءها فأخبرته أنّ
الإنسان بلا هدف كالصاعد في مركبة ولا يعرف وجهته فلا
الطريق ينتهي ولا هو يتحرك.

ليلى

لقد أنهت أمل آخر سنة في دراستها وتخرجت من كلية
الطب بمعدلٍ مُمتازٍ أهّلها للإكمال في الدراسات العليا حيث
عرض عليها عميد الكلية أن تفعل وهو مَنْ سيخبر نفس
المنظمة بإرادتها ويطلب أن تدفع لها أقساط سنوات
الاختصاص

لكنها أبّت أن تكمل وذلك عندما قرأت على صفحتها في
الفيسبوك من القرارات العاجلة .

"لقد تمّ فكّ الحصار على أحياءٍ في حلب ومنها بستان
القصر وحي السكري وحي الفردوس و.... وعم الأمان فيها
لكنها لا تزال خالية إلا من سكانها الذين رفضوا الخروج
منها رغم ضعفها"

أمل

وأنا أتصفح في الفيسبوك وأحاول البحث عن أي خبرٍ
يصلني من أبي و عمي صديقاتي أي خبر فقط أمسك رأس
الخيوط لأكمل بنفسني فقرأت عن الفرع بمدينة حلب
وما كان بوسعي إلا أن أنادي

-أمي....أنس.....

لقد جاء الفرج و عاد الأمان إلى حيّنا سنعود سنعود يا أمي

-أشعر بحلمي يدنو ويقترّب أليس كذلك يا أنس وها نحن
معاً فلنكن هكذا حتى النهاية .

-نعم يا حبيبتي سننطلق إلى البلد الحبيب وأشتم رائحة أمي
بين أزقته وتلتقين بمن طال الفراق بينكم ونحقق حلمنا يا
أملي

ولكن أرى أن نروّي في الأمر بضعة أيام فقط قد يكون
تضليلاً إعلامياً والأمر مجرد خدعة يتشفّون بنا مجرد
وصولنا

-أمي أسمعين ما يقوله أنس ننتظر ونصبر أياماً آخر ألا
يكفيننا ما صبرنا.

-نعم يابنيتي أنا مع زوجك فلنصبر قليلاً يقول المثل يا أملي
"الشجاعة صبر ساعة " .

وقبل أن تكمل أمي صرخ حسام بوجهنا

-لا والله لن ننتظر كل هذا إنه بلدنا أراكم اعتدتم الغربية ولا
تفرق المسألة معكم؟

فقال أنس وهو يضع يده على كتفه

-سنذهب سنذهب إن شاء الله

أما غسان فقد انشغل بحزم أغراضه الثمينة في حقيبته

أنس

قررنا المكوث وقتاً قصيراً بعد إنهاء الحصار و بعد أيام
كان عيد زواجنا وقد فُكِّرت كثيراً بالهدية التي سأقدمها
لأُملي بهذه المناسبة فتذكرتُ شغفها بالقراءة وصادقتها
للكتب فقررتُ أن أحضر لها كتاباً

ودخلت المكتبة فلفت انتباهي غلاف كتابٍ برسمته وألوانها
فاشتريته فوراً .

وسارعتُ إلى المنزل لأجد أُملي تنتظرني فأعطيْتُها الكتاب
وأنا أقول كل عام ونصفي الثاني بخير

فعجبتُ لرَدّها الغريب وقد أخذته ترقب غلافه وقرأت
العنوان بصوتٍ عالٍ "على الضفة الأخرى"

وقالت بصوتٍ أخفض أبي .. حلمي .. وطني .. صديقاتي .. أنا
- وأنت بخير

فقط وأنا بخير ما الذي حصل

لا تلاحظ وجودي هكذا بان عليها

وهي تنقل نظرها أعلى وأدنى الصفحة الأولى وصرخت
رزان رزان

وراح يتردد صدى صوتها في أرجاء الغرفة وهي تضحك
والدمع بعينيها

- ما بكِ أين رزان

-لا أدري يا أنس لكن الكتاب من تأليف صديقة طفولتي
وحلمي رزان واسمها الثلاثي أكد لي ما أرى

أتذكر ذات مرة سألتها عن كتابة اسمها ثلاثياً في المذكرات
والأشعار وحتى على دفاترها المدرسية فأخبرتني عن تلك
النشوة التي تنتابها حين يُذكر اسمها "رزان ياسر خلف"
وكم تتمنى أن يتردد اسمها بين الناس من كل النواحي
فتكون كاتبهم المفضلة

أدخلت أمل السعادة على قلبي بخبر صديقتها.

-الحمد لله يا أمل لا مستحيل مع الله وها قد عرفت شيئاً عن
إحدى صديقاتك

-ولكنني لم أعرف بعد أخبارها ولا عنوانها

- انظري في آخر صفحة فقد دُون اسم الصحيفة

تعالى معي

ذهبت على صفحتي في الفيسبوك لأجد عنوان الصحيفة
التي تعمل فيها رزان فقد رأينا اسمها بين الكتاب
المستمرين لدى الصحيفة

زياد

زال الحصار والخطر فصار بإمكاننا الخروج حيث شئنا هكذا
أخبرونا

وبعد ذلك خرجتُ مسرعاً إلى بيتنا

لأجد أيمن وحنان في بيت جيراننا الجدد وقد كبرا
فركضتُ إليهما أحتضنهما وأنا أسأل أين جدك يا حنان أمك
كيف حالها؟

لقد فارقا الحياة يا أبي بآخر ضربةٍ استشهد جدي حين خرج
ليجلب لأمي دواءها وصمتت
فأكمل أيمن وأمي توفيت من شدة الالتهاب في قصباتها .

بين الحرم والحرب مسافات للقلَم

رزان

كُل شيءٍ كان لطيف بعد تلك الليلة التي اجتمعتُ فيها مع
صديقتي الثلاث وبعد أيام

دخل والدي وهو يلهث بقوة كأنه كان يركض لساعات وقال:
هل الجميع في البيت ؟

فأجبته بتوتر

لا يا أبي أخي محمد اتصل منذ قليل وأخبرني بأنه لم ينه
عمله بعد ، ماذا حدث؟!

ليرد على سؤالي بحزن

تم رمي قذيفة على السوق .

ويقال أيضاً أن هناك جرحى وضحايا كثير

وسمعت أمي وهي قادمة من غرفة نومها لتقول ببكاء.

ولدي أين محمد ولدي ؟.

فقال أبي

لا تغفلي على أن هذا عمله والله الحامي لا نحن.

فقلت

لقد طمأنني عليه منذ قليل وأخبرني بأنه سيتأخر ، لا داعي للقلق

تركنتا أُمي بطريقها لغرفة النوم وهي تتلفظ بالأذكار المسائية .

قال والدي بخوف

لا أفهم معنى للهجوم المفاجئ هذا ، ألا يخافون الله؟ ماذا لو وقع الكثير من الأبرياء ضحايا قصفهم؟.

تنهدت وقلت

لا تقلق يا أبي كل شيء سيكون بخير حتى أخي .

(قلتها و قلبي يدق بعنف،خوف،حزن ...لا أعرف ماهي إلا مشاعرٌ مضطربة كأنها تؤكد لي حدوث كارثة مع أخي).

وفي اليوم الثاني استيقظتُ على أمل رجوعه فذهبتُ لغرفته
لأطمئن عليه وجدت سريرَه خالياً

وشعرتُ بالألم في قلبي فاتجهتُ للخارج لأجد والدتي تقف
أمام التلفاز والصدمة مرسومة على وجهها هممتُ أن
أسألها عن سبب وجومها هذا

ولكنني انتبهتُ لاسمَي أخي محمد وأحمد شقيق براءة
بأنهم قد استشهدوا نتيجة الهجوم العنيف بالصواريخ
والقذائف على السوق حيث كانوا يسعفون المصابين

وقراتُ أيضاً "كما تم الهجوم على الشوارع الأولى من حي
الفردوس فخطر ببالي ذاك الذي تسكن فيه أمل و أكملتُ
قراءةً فوق الكثير من الشهداء و الجرحى، جاءني الخبر
كالصاعقة فتمتمتُ بتكذيب الخبر

-لا....لا....أخي لم يمّت ...محمد حيأمي ردي علي
....هل تركنا أخي دون أن يودعنا... لا هذا مستحيل.....يا
الله ...

ملاً صوت نحيبي الحي شعرت بأضلاعي تتكسر داخلي .

ولكن أُمي كانت شاردةً بالأشياء فلم يأتني الرد على
أسئلتِي المتتالية

زينب

صدمني خبر الوفاة هذا وقهرني فراق ولدي قطعة من
جسدي رحلت للأبد وما زاد من ألمي وتعبي إلا منظر رزان
التي تصرخ بأعلى صوتها لا تريد التصديق فتركتني هي
الأخرى وانزوت بنفسها بعيداً لتبكي .

وفي هذه الأثناء طرق الباب فحاولت القيام لأشعر بشللٍ في
أطرافي إذ جذبني الكرسي وشدني إليه قبل أن أنهض وما
كان لرزان إلا أن تفتح الباب بنفسها

رزان

طُرق الباب ولاحظتُ تأخر أمي في فتحه فتحاملتُ على
نفسي وفتحته لأجد عزائي بصديقتي براءة وقد تورمت
أجفانها واحمرت عيناها من شدة البكاء فاحتضنتها بقوة
وكانني ألقى عليها كل ما بداخلي من أحزان وبكيننا معاً حتى
جفت مآقينا

وقالت

إذاً مات محمد مع أخي الذي تركني لأمضي في معارك
الحياة وخسرته فما لأحدٍ أن يملأ الفراغ الذي خلفه وراءه

لأنظر لها بخوف معنيّ هذا دليل على أن كل شيء صحيح
كيف !!!

رأيتُ من بين دمعاتي أبي و والد براءة وبعض الناس
حاملين جثمان شقيقي وشقيق براءة كان المنظر يبكي
الحجر .

وشعرت بالظلام يحاوطني من كل ناحية فقط أراه يبتسم لي
بحبٍ وود هذا من فقدت والله إنها لخسارة لا تُعوض إنه
أخي الغالي محمد

زينب

مرت أيامٌ على رحيل محمد يطوي ليلها نهارها ويُقلب
نهارها ليل

وكانت الفاجعة المؤلمة كبيرة وضخمة في أول الأمر
وراحت تتناقص حتى تحولت لذكرى ودعاء

هكذا كان حالها معي ومع زوجي ياسر ،أما رزان فقد فقدنا
أثرها الجميل في جلساتنا كما أنها دخلت بمرحلة اكتئابٍ
حاد لا تأكل ولا تشرب وأراها شاردةً في معظم الأحيان
حتى أصبحت أخاف فقدانها.

ياسر

استمر اليأس لأيام وأنا أهدئ من روعي غداً تنسى وتعود
رزان التي عرفناها ولكنها في كل يوم تزداد شحوباً وأرقاً
فأتعبنى هذا وآلمني إلى متى يا الله ما هذا الحال الذي
وصالناه ؟

قد عانينا الانتظار ومن ثم جاءتنا فاجعة فقدان لأعز الناس
على قلوبنا واكتئاب رزان الذي يزداد مشكلاً خطراً على
حياتها وبعد هذا كله بدأ القصف يقترب فتهتز جدراننا
وتتفتح أبوابنا عند كل انفجار

كثر همي وثقل حملي ما الذي أفعله يا الله

جاءت زينب تبادر بالطب وأنا ساهمٌ بالفراغ فقالت

-مساء الخير سأحدثك بشيء يقلقني

لم أنبس ببنت شفة فرفعت صوتها وهي تناديني

- يا ااسر هل أنت معي؟ سأخبرك بأمرٍ خطير

وهزتي بيدها الباردة لأصحى من شرودي فانتبهتُ لها قائلاً

- ما بك أفرغي ما بجعبتك واعذريني فقد كنتُ مُنْشَغَلاً بوضع

رزان الصحي أراه يسوع يوماً بعد يوم

-لقد وضعت يدك على محور القصيد فهذا ما جئتك به

أراها مُتعبة من كل شيء منذ وفاة أخيها حتى الآن لم تأكل
إلا بضع لقيماتٍ معدودة على الأصابع ولا أرى لحالها
تحسن

-أعرف هذا جيداً إذ عزمْتُ على مغادرة الحي كي يتحسن
وضع رزان وتهداً الأحوال هنا قليلاً ولكن شكستة أولاد أين
نذهب بهم ومن يفتح لنا بيته

هنا أعمل بالمدرسة إن خرجنا كيف سأعمل ،ثمة حلقةٍ
مفقودة تحيرني فتوصلني لطريقٍ مسدود لتعيدني للبداية
مجدداً

-لا أدري ولكنني أخاف القصف وأخشى أن يأخذ أحد أولادي
من حضني كما أنني أحزن على رزان التي لم تخرج من
غرفتها إلا مرة واحدة فقط بعد رحيل محمد فعادت وقد
ساعت حالتها وازدادت مأساتها

-ما الحل فكري معي؟

-بيت أختي في إدلب ما رأيك أن نزورهم ونمكث أياماً بينهم
ريثما تهداً الأصوات والضربات هنا وتستقر حالة رزان وأنا
على يقين بأنها ستتحسن مجرد أن ترى خالتها وتفضفض
لها فهي تحبها منذ الصغر كما أن منطقتهم آمنة وهادئة
والعيشة في الأرياف تهدئ النفس وتبعث الطمأنينة فيها
-سأروني في الأمر ولن يحصل إلا الخير بإذن الله

رزان

استيقظتُ بعد أيامٍ وشعرتُ بأن كل شيء كان يدور من حولي

ذهبتُ لأخبر صديقتي شغف بما جرى مع شقيق روي محمد لكنني لم أرَ حذاءها على الباب وقد تعودت أن تتركه مرمياً وتدخل البيت حيث كانت تصل كل يوم منهكة لا تقوى على إدخال حذاءها

دققتُ الباب ففتحت والدّة شغف وهي تلبس الأسود فاحتضنتني وراحت تبكي بين ذراعيّ كطفلٍ صغير وجد أمه بعد زيارتها الطويلة بعيدة عنه أهلاً ابنتي

- ما بكِ يا خالتي كل شيء على ما يرام أليس كذلك!!

- بلى إلا رفيقتك التي جئت لتسألني عنها فقد ذهبت ابنتي الوحيدة بحادث السوق

- ماذا حـا...حادث..حادث السوق أقلتِ هذا!! كيف حصل ذلك

- كانت هناك تشتري لكِ هديةً بعيد ميلادك يا رزان لكنه جاء ولم تُقدم الهدية فقد دُفنت مع صاحبها

- لا تقوليها يا خالة شغف تبحث لي عن الهدية الأجمل... لا
لم تمت.... هي فقط تفكر كثيراً قبل أن تختار الهدية وهذا ما
يؤخرها دوماً

- لا بل استشهدت يا رزان شغف تركتنا لنحتفل وحدنا ،لن
تحضر شغف ولا هديتها ميلاداً جديداً فقد ماتت

- لااااااا..... هذا يكفي هناك خطأ ما لا بد أنه الخطأ لا شيء
غيره

أخي وصديقتي يا الله

أخي وشغفي فصبرني يا الله

تعب هذا القلب فسكنه برحمتك ياربي

سمعتُ صوته الدافئ من الداخل الدكتور نضال ينادي
زوجته

-هيا أعدّي نفسك لننطلق فرحلتنا طويلة وشاقة

-إلى أين يا خالتي؟

-ألمانيا كما تعلمين يارزان عمك نضال يدير عدة مشافي في
ألمانيا

ولا يزورنا في السنة إلا بضعة أيام

فالآن جاء موعد رجوعه

-وأنت ستسافرين معه

-نعم سأفعل فقد أصرّ أن ألزمه بعد وفاة ابنتنا الوحيدة إذ لم
يبقَ لنا نحن الإثنين سوى بعض

-ألا يكون الطريق خطير في هذه الظروف!!
-لا لا فنحن سنذهب باستدعاء من نقابة الأطباء في ألمانيا
في بداية الطريق سننتقل بحراً لمنطقة قريبة من هنا وبعدها
تقلنا طائرة ألمانية إلى هناك

-تمام أسأل الله أن يوصلك وإياه بصحة وسلامة
احتضنتُ والدَةَ شَغَف التي كانت بمنزلة أُمنا وتركناها تلملم
ذكرياتها مع ابنتها شَغَف وصديقاتها

وبطريقي للمنزل تخيلتُ نفسي مخرجةً لعرض تلفزيوني
حزين وحين تأثرت وقبل أن تنزل دموعي فأفقد شيئاً من
هيبتي ووقاري أمام القائمين على العمل صرختُ بالمصوّر
- قف يكفي هنا دعنا نأخذ قسطاً من الراحة ونكمل فيما
بعد

وحين وصلتُ إذ ارتطم نظري بباب منزلنا فصحيثُ على
نفسي لأجدني هنا في الواقع نفسه وسمعتُ دوي الانفجار
ففتحتُ الباب وركضتُ إلى غرفتي فبكيثُ واقعي وجرحي
فالصدمات جاءتني واحدة تلو الأخرى

ياسر

شعرتُ فجأةً بحب الانتماء والجذور التي يصعب اقتلاعها
وأعرف تماماً هذه الأصوات كما أحفظ بدايات الحروب عن
ظهر قلب وأدرك أنها متى اندلعت فإنها لا تنطفئ قبل أن
تودي بالمدن التي تختارها فتقتل أبناءها وتهدم المدارس

والمشافي والمباني الأمنية لا تترك شيئاً بعدها سوى مَنْ
كتب له الله أن يعيش أكثر ويحمل آلاف الندبات والحسرات

أراني حائراً فأقدم قدماً بطريق الخروج لتشدّها الأخرى
وترجعها فأتشبّث بالأرض ثابتاً

إلا أن ضرب صوتٌ مخيفٌ أذني قلبي إنه دوي انفجار أو
صاروخ وربما برميل يصعب تحديده بالاسم

كما أن مشهداً رهيب الأسى اخترق عيون قلبي أولادي
هناك وبيتي الكل تحت الأرض والركام جاثمٌ فوقهم أما أنا
فكنت جالساً على القمة التي كوّنّها البناء إذ هُدم تبعاً
،أراني مبتسماً والدمعة في أحداقي ربما جُننت لوقوع
الحادث في بيتي وفراق عائلتي كاملةً وما صحيتُ إلا حين
وجدتُ نفسي أصرخ من أعماقي أناذي رزاًاااان.... زينب
.....أولادي

لأراهم يحضرون أمامي كلهم حتى رزان التي أغلقت باب
غرفتها لأيام ورفضت أن نقاسمها حزنها ونشاركها الألم
الذي يسكنها

هزت زينب رأسي بيدين راجفتين وبسرعةٍ بالغةٍ كما أن
كوباً من الماء البارد جاءتني رزان به وقالت
-تفضل أبي عساك بخير؟-

فتناولته زينب وهي تبكي وتسالني
-ياسر مابك أتعاني من ألمٍ ما؟-

أخبرني ولم أنبس ببنت شفة رغم إلحاحها والتفّ الأولاد
حولي لتنادي أبي أبي رد علينا

صفعتني زينب برشقات الماء على وجهي الشاحب وسقتني
لتروي ما تصدع من عروقي وجف من أحشائي

وأخيراً حاولت فهم ما جرى حلماً شنيعاً في اليقظة نتيجة
الخوف الدائم والأخبار المؤلمة التي تتواتر بوصولها إلينا
وحتى المشاهد التي حضرنا بأنفسنا وجاءني طيف محمد
يقول: أرجوك يا أبي ابتعد

-حسناً سأبتعد فلتهدأ روحك الطاهرة ونفسك البارة

-نظرتُ بعيني رزان وتحسستُ يدي زينب الباردة فلامستها
وأنا أقول

-حضروا أنفسكم لنذهب بعيداً ونروح عن أنفسنا ريثماً يهدأ
هذا اللعين ويوقف القصف.

فيحاء خالتكم في أدلب ما رأيكم أن نزورها

-فوافقتي الأولاد حيث أحبوا منذ صغرهم هواء أدلب
ومراحها كما يشتاقون دائماً لزيارة خالتهم الصغيرة التي
تزوجت شاباً من ريف أدلب "سرمين" فسكنت معه
وزينب أيضاً رحبت بالفكرة مع غصة

فقد اعتادت أن تأخذ أولادها جميعاً وعلى رأسهم محمد أما
الآن فالزيارة مختلفة زيارتنا هذه أشبه بالنزوح لمدة لا
نعرف أين ومتى ستنتهي

ولكنهم سارعوا لتحضير أنفسهم ونزلت لأجهز سيارتي
ونسافر بها تذكرت الزيارات السابقة حين أرسل محمد
لشراء الحلويات التي سنحملها معنا لبيت خالته بينما أكون
أنا واقفاً على باب الفرن فأشتري لهم الخبز الحلبي الذي
يلتزمون به كما لو أنهم يذوقون الخبز للمرة الأولى وفي كل
مرة يخبرني عديلي طريف بأنه لم يذق كنكهة خبز الشهباء
قط المعجون من الدقيق الذهبي وبيدين مبسوطتين لتنتج
هذا الطعم المميز

رزان

أخبرنا أبي أننا سنسافر إلى إدلب حيث تسكن خالتي الحبيبة
فيحاء مع زوجها طريف وابنتها شهد كان القرار محتوماً
من قبل أبي وأمي لكنني لا أحبذ لقاء أحد في حالتي هذه كما
أنني أكره أن أترك كل شيء وراء ظهري وأمشي
بيتي وصديقاتي وحلمي الذي أودعه تحت وسادتي في كل
يوم

على كل حال فإن أبي لم يسألني عن رأيي بل فرض عليّ أن
أجهز للرحيل حالاً كما فعل مع أمي وأخوتي إلا أنهم تقبلوا
الفكرة ورحبوا بها أكثر مني فأنا لم أعد أشتهي شيء بعد
فراق أخي وشغف حتى إدلب التي عشقت خضرتها وترابها
منذ القدم

لكنّ أبي أراد ذلك كي أعطي فرصةً جديدةً وأطلق عنان
أحلامي وأعيد تشكيل ذاتي من جديد فأوافقهُ بتلك النقطة لا
بد من إنشاء فتاةٍ أخرى غير تلك التي تحطمت وصارت
أشلاءً بين حلمها ورفيقاتها وماضيها بالكامل الذي يحاول
الحاضر الغائب أن يمحوه وذلك بأصوات القصف والروائح
الكريهة المنبعثة من الأسلحة

لا بد من إعادة النظر في بناء واحدةٍ أخرى على أثاث هذه
الموجودة الآن في اللاوجود

ولكنني الآن مقيدة الفكر والأيدي لا أقدر على فعل أي شيء
حتى النسيان جربته ولكنني لم أنسَ ولا أظن نفسي سأفعل
في يوم من الأيام الآتية

زينب

حزمتُ الحقائب وأغلقت صنادير الماء بإحكامٍ كما فعلتُ مع
بابي الغرفة الداخلية أما بقية الغرفة فأبوابها تأثرت
بالانفجارات المتواصلة

قبّلت الجدران وأنا أردد سنعود قريباً

لملمتُ أشتائي المبعثرة فحملتُ النقود مع صورة ابني محمد
في يد وأمسكت يد ابني بالأخرى أما رزان فقد تأخرت
فاستعجلها ياسر منادياً - هيا يارزان ما بك فلننجوا من
ضرباتهم .

- لا شيء يا أبي ولكن...

- أسرع تخبريني في الطريق

- أبي أريد أن أرى براءة وأودعها

- لا نملك الوقت سترينها فيما بعد إن كتب الله ذلك

تلعثمت قبل أن تقول

لا أريد الذهاب معكم

فشدها من يدها وأنزلها بخوف بينما كانت القذيفة تسقط
فنزل سقف المطبخ مهدوماً والدخان خنقنا جميعاً لولا لطف
الله الذي أنزله ليغيثنا وقد كتب لنا العمر

فتح ياسر باب السيارة وقد تكسر زجاجها و أدخل رزان
التي دارت بها الدنيا من حولها وزاغ بصرها فشخصت
عينها وقد أخافني وضعها ولكنها تتنفس والحمد لله

- هكذا صرخت من الخلف وقد أجلس ياسر الأولاد جانبي
ووضع الحقائب على الكرسي المجاور له

أشعل سيارته وانطلق وراحت القذائف تتقارب

- الموت قريب يا ياسر

- لا تخافي حبيبتي انتبهي للأولاد

- رزان فاقدةً وعيها والقصف يزيد

- اهديني واسكبي من الماء على وجهها

- عن أي ماءٍ تتحدث لم يكن معنا شيئاً منه

- كيف.....سفر بلا ماء في حالة السلم كنا نأخذ معنا ماءً
فالتريق طويل

- تذكرت هذا ولكنني لم أجد نقطة واحدة نأخذها بطريقنا
أنسيت أنهم قطعوا الكهرباء فالماء
وأنا أذكره بفقدان الماء

ووو.....

علا صوت الطائرة ونفذت خلفنا فجاءت الشظايا إلى
سيارتنا لكنها لم تتوقف والحمد لله
من توقفت هي قلوبنا فقط قد انقطعت من أثر الرعدة وبال
سمير في ثيابه فراح يبكي

- اهدأ يا حبيبي سنصل بعد قليل ويختفي هذا الخوف
لم يرد عليّ

أما رزان فقد عاد وعيها ولكن الإرهاق ظل ملازماً لها

ياسر

أثناء قيادتي واجهت الموت والخطر وما كان لي أن أظهر
القلق لزينب فقد رأيتها خائفة متوترة

وفي آخر شظية دخلت محرك السيارة توقفت عن العمل وما
كان بوسعي أن أفعل شيئاً والرصاص يأتي من كل الأطراف
شعرت بماء يغلي في رأسي

ازداد الخوف والحزن والآن ما الذي أفعله

صاحت زينب

ما الذي يوقفك أكمل بالله عليك أن تكمل

- هدئي من روعك لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

- ونعم بالله أولادك يا ياسر أولادك

- سننجوا بإذن الله

حاولت بالإقلاع لكنها ثبتت بالأرض

وعرفت أن الأمل منها مقطوع

فأنزلت الأولاد وأسندت رزان أما زينب فقد كانت صاحبة
الزهن أكثر مني حيث عرفت أننا سنتابع بدون السيارة
فحملت حقيبة المال مع سمير وركضت بهم وكان من دوري
أن أحمل شيماء وروان بين ذراعي وأنظر رزان ومعها
أخويها خالد ومُنِيب ركضنا جميعاً وبعد ابتعادنا بأمطار
نفذت اللعينة سمومها فالتفتُ وما يزال الصوت يدوي في
أذني لأرى النار والدخان ينبعث من السيارة

فصرخت رزان محمد صورة محمد

-معي هنا لا تقلقي هو في مكانٍ أكثر أماناً من هنا رحمه الله

قالتها زينب بحسرة ويأس

وتابعنا الركض كما تابعوا قصفهم

فقال خالد بتعبٍ شديد: تيبّست عروقي يا أبت لقد عطشت.

-سنصل يا ولدي اصبر فأنت رجلٌ قوي صلب أليس كذلك

ازداد العرق على وجهه كما ازدادت زرقة شفّتيه

- أبي أبي

-قم يا خالد لقد اقتربنا من الماء اصبر فقط

بلع ريقه وأخذ شهيقه منحي مختلف فراحت ضربات قلبه
تتسارع بشكلٍ مرعب

-خالد لا تستسلم هيا أيها الشجاع

وعندما رأيتُ حالته متأزّمة أنزلت شيماء وحملته فلفظ آخر أنفاسه على كتفي

وَعَرَفْتُ أَنَّهُ لِحَقِّ بَأْخِيهِ لَكُنِّي آثَرْتُ أَنْ أَتْرَكَهَا فِي نَفْسِي
رَيْثَمَا نَجِدَ مَأْوَى لَنَا وَيُزِيلُ الْخَطَرَ عَلَيْنَا

ونحن مارين بالطريق وقد ابتعدنا عن هدفهم فتباعدت
الضربات وانخفض صوتها وإذ بحافلة كبيرة مليئة بالناس
والأغراض صرختُ بأعلى صوتي

-توقف يا أخي توقف

-الحافلة ممثلة ألا ترى

-بلى والله قد رأيت ولكنها إغاثة ملهوف ومعي أولاد ونساء

كم تدفع!!

وقبل أن أجيبه أعطني زينب كل المال الذي تحمله فناولته نصيبه وركبنا معه ومن أول صعودنا تفقدت زينب الأولاد فقد قلقت بحدس الأمومة الذي لا يخيب وأخذت خالد عني ليميل رأسه على كتفي مجدداً فراححت تتفقد نبضه ووجدته واقفاً لا حياة فيه فأغمضت عينيها بألم و صرخت ياااااااااا

الله

أما رزان فقد حضنت أخوتها وهي تبكي
خالد ومحمد رحلوا يا رب ألهمنا الصبر ربنا لا تحملنا ما لا
طاقة لنا به

علّقت عينيها بالسماء إذ لم تعد ترى فيها إلا الدخان ربما
من تراكم الدموع أو كثرة الركام والهدم الذي يخلف دخاناً
وقد يكون ناتجاً من سجائر السائق السفیه الذي
وجه خطابه لي

-لو أخبرتنا بوفاة ابنك لكنا قمنا بالواجب فالدفع للأحياء
يختلف عن الأموات
كم اشتييتُ أن أضربه ولكنني كظمتُ غيظي فحاجتي عنده
ومن أجل زينب والأولاد أوصلنا وبمجرد أن رأيتُ سيارةً
أخرى نزلت بعائلتي متجهاً نحوها فأدخلتنا سربين ووصلنا
إلى بيت فيحاء
فأمنت على أهل بيتي عندهم في المنزل وذهبتُ مع طريف
لندفن خالد

رزان

دخلتُ بيت خالتي مصطحبةً
معي شيماء ومنيب أما أمي فأدخلتُ معها سمير وروان
وتعانقت مع خالتي فأطالت الأخرى من احتضانها

ركضت ابنتها شهد وضمتني إليها لكنني لا أشعر بشيء لا
حزن ولا ألم لا دموع ولا نحيب كنت في صدمةٍ ودهشة
كيف حدث هذا كيف يمكن لأخوتي ورفيقتي أن يتركوني .
شعرتُ بكفّي شهد على ظهري لكنني لم أقابلها بالهفة
ذاتها.

وبقيتُ هكذا ثابتةً في مكاني وكأنه الخرس أصابني، راحت
أمي تحكي لخالتي وابنتها عن استشهاد محمد أولاً وزيادة
القصف ثانياً وأخيراً أحدث الأحداث موت أخي الصغير خالد
فنظرت خالتي إليّ وقد عذرتني فقالت لابنتها لا تتركها
وحدها يا شهد فهمها كبير وحزنها شديد حيث كان محمد
وأصدقائها كل شيء بحياتها

زينب

بقينا في بيت أختي وزوجها حيث وجدتُ فيها السند والدعم
وكان الله سخرها لي لأصبر على رحيل ولدي وابتعادي عن
مدينتي فأعانتني بفضلٍ من الله على النهوض مرةً جديدةً
،أما ياسر فقد تماسك هو الآخر فحمد الله على كل شيء
وبدأ العمل كمدرس لطلاب المرحلة الإعدادية بمدرسةٍ
صغيرة في سمرين بالقرب من بيت أختي كما أنني ألحقت
أولادي بالمدارس إلا رزان التي لا تتيح لي الفرصة أن
أحكي معها وتطمئنني شهد على حالتها فهي قريبةٌ منها كما
أخبرتني بأنها ستداوي جروح رزان بطريقةٍ سحرية
وماهرة ما عليّ إلا الانتظار.

رزان

ظَلْتُ شهد ترعاني لأيامٍ عديدة إذ شعرتُ بالتعب والإرهاق
وانهارت أعصابي فتحملت لحظات هدوئي وعصبيتي
وبكائي الهستيري حديثي المتكرر عن صديقاتي

كان لشهد قلبُ أمٍ رؤوف حيث أبت أن تدعني ووحدي
وظلت تسايروني وتواسيني كل الوقت رغم عمرها الصغير
فهي تصغرني بسنوات لكنها أكثر مني أملاً وعطاءً ربما
لأنها لم تمر بما مررت .

وحين سألتها عن سبب الابتسامة الدائمة على خديها حتى
وأنا أصف لها مشهداً مأساوياً من تلك المشاهد التي
عشناها أجدها تبتسم وتخبرني بتصوير ذكريات وسنعيش ما
ينسينا مرارها أما مَنْ تركونا فقد سبقونا إلى الجنة
أخبرتها أنها تتحدث كالكبار وكأنها منهم فابتسمت وقالت
إنه الإيمان يا رزان وتحدثت بالطريقة التي تتحدث فيها
براءة

فذكرتني بها لأقول في نفسي

أين أنت يا براءة أتراكِ قدرتِ على الأمل من بعد أخيكِ كما
لم أقدر لكنني سأقدر لأجله ولأجلي ولأجل كل مَنْ حولي

-شهد أنت في الصف الثامن أليس كذلك

-نعم الثامن ومدرستي جميلة

قالتها لتجذبني وتثير اهتمامي وقد نجحت

- تُرى أيمكنني أن ألتحق بها وأكمل ثانويتي؟
- أحقاً ما سمعته أذني ،إن كنت متأكدة أسأل غداً مديرتنا
- ما بك تحمستِ سأحاول النهوض من جديد وربما أفضل
- بل ستتجحين

-شهد ألا يكون محرراً طلبتي أن تحضري لي دفترًا من
عندك حتى لو قديم لا مانع وحبذا لو معه قلم
- لا يا رزان محررٌ هذا ومكلف أسأل لك صديقتي فإن
وجدتُ واحداً عندهم لا يلزمهم آتيك به وإن لم أجد فوكلي
أمرِك لله وهو حسبك

ههههه قهقههنا معاً فالمتتي شفتاي ها لقد نسيتُ الضحك
حتى الابتسامة لم تزرها بعد وقوع أول كارثة برحيل محمد
شهد

عندما بدأتُ بتنفيذ خطتي مع رزان كان هناك شعور الخوف
يلاحقني ربما أفضل فالحرب اللعينة خربت ما بداخلها
وفقدان أعز الناس على قلبها ترك بعده فجوة سوداء
في بداية الأمر كانت رزان تضع الحواجز بيننا وتخلق
المسافات والحدود بالرغم من أنني قاسمتها غرفتي
فتشاركنا فيها وكان لها مثل الذي عندي إلا أنها تمتنع عن
مشاركتي لها في أحزانها
كلّما أفتح حديثاً ترد باقتضاب وسرعان ما تغلقه بشرودها

لكنّ ما تعلمته بفضل الأنسة أسماء التي تدرّسني علم
الأحياء من الإصرار والعزيمة والتشبّث كان سيفاً أضرب
فيه اليأس والتردد والخوف

حسناً سأحاول وفي كل مرة أراها تتحسن بالتدريج حيث
صارت روحها مطاطية وأكثر مرونة

وما وجدتُ هذا التطور إلا بعدما صارت تفتح الأحاديث معي
وتناقشني

فتحكي لي أحياناً عن أخويها الشهيدين وتصف لي الرحلة
القاتلة لولا لطف الله وكثيراً ما روت لي أشكال صديقاتها
وتصرفاتهم ومزاحهم واحدة واحدة كما أنها أخبرتني
بحلمهن في بناء مشفى خاص بهنّ يساعذن من خلاله
المحتاجين وذويهم

وحين وصلت لفتاة سمتها لي شغف امتلأت عيناها دمعاً
فحضنتها وأخبرتها بأن الحلم سيتحقق وشغف لن تموت إلا
بموت حلمها فمتى يتحقق حلمها تحيا في أثرها الذي تركته
والنفع الذي خلفته وصديقاتها لن يتركوها تموت وحلمها
أليس كذلك

-بلى والله لن أتركها بل سأفعل المستحيل كي أصل لحلمي
وصديقاتي

ابتسمت وعانقتني من جديد

- الحمدُ لمنّ جمعني بكِ يا شهد

ياسر

بعد أن دفنتُ ابني خالد تحت التراب بكلتا يدي شعرتُ بالقوة
وكأنه مات لأعيش

نعم هذا ما يصح في الحروب يموت أشخاص ليحيا غيرهم
بشكل أفضل وأقوى عشتُ من أجل خالد ومحمد عشتُ
لأحمل قضيتهم في حقيبتِي وذاكرتي أينما ذهبت

شعرتُ بقوة أبطال الروايات التي كانت أُمي تقرأها لحفيدها
الأول محمد أمامي وكل دقيقة ينظر إلي إنه البطل الشجاع
سينتصر أما بطلِي فأنت رغم صغر سنه إلا أنني كنتُ أرى
الدنيا بحلاوتها من خلال كلماته تلك

والآن صرتُ أكثر إصراراً على المواجهة سأكون بطلك
الحقيقي يا محمد ، سجلتُ اسمي في مدرسة لأبدأ في
التدريس ولكن ثمة شاغرٍ وظيفي لم يكن هناك فانتظرتُ
حتى أرسلوا بطلبي

وبدأتُ عملي في المدرسة الجديدة براتبٍ مقبول و عملتُ
على إيقاظ المعلمين و الطلاب كما سلّطتُ الأضواء على
نقاطٍ صغيرة لم تتضح لهم بعد وشرحتُ لهم سياسة الأعداء
فتشجع الشباب وثاروا حتى تظاهروا في الشوارع ورفعوا
الرايات وراحوا يدعون لدفع الظلم ويقنعون الناس كما
فعلتُ معهم

لكن ثمة سلطةٍ لن تراهم فَمَن هؤلاء بنظرها بضعة شبانٍ
ثائرة وهائجة لا داعي للخوف منهم

بعد انتهائي من العمل وانصرافي عدت بطريقي إلى المنزل
فقصدت أبا فيصل بائع الفول في سمرين واشتريت من عنده
وإذ به طريف يستعجلني فالطعام جاهز من ساعتين هكذا
أخبرني

وصلت وإياه المنزل وتناولنا الغداء جميعاً وقد أعجبتني
حالة رزان فقد تحسنت كثيراً وصارت تجلس معنا لتناول
الغداء وهذا شيء رائع

قالت شهد بحبور

-عمي ياسر سأخبرك شيئاً هام

-هيا قل لي ما عندك ،تفضلي يا ابنتي

-عمو... لقد قررت رزان أخيراً أن تكمل دراستها الثانوية

انفرجت أساريри كما برقت ملامح زينب حين سمعت الخبر
من شهد يبدو أنها تسمعه للمرة الأولى

التفت لـرزان مذهولاً بذكاء شهد وسحرها ومسروراً لا
أصدق ما سمعته أذني

-ماذا !!أصحيح هذا يارزان أخيراً تقريرين أن تحققي حلمنا

-بلى يا أبي صحيح وشهد فتاةً مهيبة وخلوقة لا يُعقل أن
تكذب أليس كذلك

-كذلك يا حبيبتي أسأل الله أن يحميك لي.

قالتها زينب وروحها تحلق فرحاً فوق المائدة وبين
الحاضرين

فأكملت رزان

لكن شهد سألت مديرتها وأخبرتها أن مدرستهم للمرحلة
الإعدادية فقط ولا يمكنني الدوام فيها

- أسأل مدير مدرستنا إن كان يعرف مدرسة إناث ثانوية
وستدخلين المدرسة أيتها الطالبة الذكية من جديد

والعلم ما تبقى من التركيز والفهم علي أفلح وأحقق الحلم

رزان

وبعد أيام أحضر لي أبي الأقلام والكتب والتحقّت بمدرسة
بعيدة عن منزل خالتي بعض الشيء إلا أننا فضلنا البقاء
معهم كما أنهم استنكروا فكرة أن نسكن وحدنا تماماً

وفي يومي الدراسي الأول حاولت أن أجاوب معهم ولكن
القليل فقط ما علق في ذهني المشتت

لأدخل لغرفتي بعد رجوعي لبيت خالتي فأبكي وأنا أتذكر
كلام شغف وإلحاحها على تحقيق حلمنا ،أتذكرها وهي تأكل
،وهي تقرأ ،وتبحث عن الأعشاب ،كانت شغف فتاة رائعة
خارجة عن مجال الوصف وكانت الصديقة الصدوقة بالنسبة
لبراءة وأمل ولي أيضاً أحببتي كما أحببْتُها وتعلقتُ بها فعلي
أن أحقق حلمها الذي لم تستطع أن تحققه بنفسها

وحلم أخي في أن أصبح طبيبته المشهورة التي تعالج الناس
دون أجرٍ مادي وإن كان فلا يرتفع كما هو الحال عند بقية
الأطباء

يجب ألا أياس ولا أستسلم
فنفضت رأسي ورتبت أفكارى فأحكمت مشاعري

كما أزلت آثار البكاء بقوة لأذهب وأجهز نفسي لدوام
المدرسة في اليوم التالي ذهبت أقرأ في الكتب وأقلب
صفحاتها

وحين تعبت أخرجت الدفتر البنفسجي الذي أعطتني إياه
شهد وكتبت عن أول يوم في الدراسة بعد الحرب التي لم
يكن بعدها بعد

لم أصادق أي أحد ولكنني كنت أدرس جيداً حتى أتمكن من
البحث عن صديقاتي يجب أن أحقق حلمي الجامعي أولاً فهو
سبيلي وبوصلتي إليهم

وكان ما حدث صار ليحفزني لكي أعود للكتابة التي ألجأت
إليها في أصعب الظروف فهي ملاذي السرمدى
وصرت أكتب على عدة مواقع والحمد لله لقد وصل كلامي
لل كثير من الناس فأثر فيهم حيث كتبت قصص وكتب وكنت
أنشرها على الأنترنت وكنت أضيف مأساتي وأحكي عن
منطقتي المدمرة بالقصص كنت أحكي عن المعاناة التي
يعيشها الجميع لهذا دخلت كتاباتي صميم قلوبهم.

وأذكر مرة بعد رجوعي من المدرسة وفي قاعة الطعام
تناولنا الغداء جميعاً فقال طريف زوج خالتي وهو يسكبُ
الأرز في صحنه والذي كان يعمل لدى صحيفة شهيرة
ما رأيك يا رزان أن تعلمي معنا في الصحيفة فقد عرضتُ
كتابتك على مدير الصحيفة فأعجبته وطلب مني أن أخبرك
بأنك تقدرين على مساعدتنا إن شئتِ وغير ذلك ممكن أن
تكتبي هنا في البيت
رحبتُ بالفكرة وابتسمتُ بأمل

ليقول والدي
فكرة جيدة يا ابنتي وبهذا ستكتسبين الخبرة
وأكملت أُمي
كيف لها أن توفّق بين دراستها وعملها معكم
فطمأنتها بقولي
-لقد أعجبتني الفكرة وأريد أن أعمل إلى جانب دراستي ولا
مانع يا أُمي فابنتك تفعلها وتستطيع إن شاء الله

كما هنأنتي خالتي فيحاء
هذا رائع بالتوفيق يا رزان
وأنهى طريف حديثنا بقوله

-إذا هَيَّيْ نَفْسَكَ سَامِرَ عَلَى مَدْرَسَتِكَ غَدًا بِحُلُولِ السَّاعَةِ
الوَاحِدَةِ لِنَنْطَلِقَ إِلَى الْمَدِيرِ وَنِيرَاكَ شَخْصِيًّا.

-إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَا عَمِي

فَانْتَهَى هَذَا الْيَوْمَ بِأَنْ أَتَجَهَّزَ لِلْقَاءِ الْأُسْتَاذِ مُحْسِنِ الْمَدِيرِ

محسن

رَوَى لِي الْأُسْتَاذُ طَرِيفٌ مُوَظَّفٌ فِي الصَّحِيفَةِ الَّتِي أَدِيرُهَا
قِصَّةَ الْفَتَاةِ الْكَاتِبَةِ الذَّكِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ عَاشَتْهَا بِمَوْتِ
أَخِيهَا وَحَتَّى وَصُولِهَا مَعَ أَهْلِهَا إِلَى بَيْتِهِ حَيْثُ سَكَنْتُ مَعَهُمْ
فِي الْبَيْتِ

كَمَا أَطْلَعَنِي عَلَى الْعَدِيدِ مِنْ كِتَابَتِهَا فَأَدْهَشْتَنِي جِزَالَةُ أَلْفَظِهَا
وَذَهْلَنِي أَسْلُوبُهَا فَسَهَرْتُ لَيْلَةً كَامِلَةً حَتَّى أَذَانَ الْفَجْرِ وَأَنَا
أَقْرَأُ خَوَاطِرَهَا لَدَيْهَا أَنَامِلُ سَاحِرَةٍ وَزَهْنٌ صَافِي لَنْ تَلَوُّهُ
الْحَرْبُ بِإِجْرَامِهَا

ازْدَدْتُ رَغْبَةً وَحِمَاسًا لِرُؤْيَيْهَا وَتَمَنَيْتُ أَنْ أُسَاهِمَ بِخَطَوَاتِهَا
الْأُولَى وَتَبَدَأَ بِالْعَمَلِ مَعَنَا فَنَحْنُ بِحَاجَةٍ مُلِحَّةٍ لِفِكْرِ الشَّبَابِ
فَأَرْسَلْتُ لِلْأُسْتَاذِ طَرِيفٍ طَلِبًا لِأَيِّتِنِي بِهَا وَأَنْظُرَ فِي أَمْرِهَا
وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ طَرَقَ الْبَابُ ظَهْرًا فَنَادَيْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ

-تَفَضَّلْ

دَخَلَ الْأُسْتَاذُ طَرِيفٌ وَمَعَهُ رِزَانٌ فَأَحْبَبْتُهَا مِنَ الْوَهْلَةِ الْأُولَى
مَظْهَرِهَا هَدُوءُهَا لِبَاقَتِهَا فِي الْكَلَامِ وَخَجْلُهَا وَسُرْعَانِ مَا

تذكرت فيها ابنتي سعاد التي توفيت قبل أعوام بالسرطان
الخبيث

-السلام عليكم هذه رزان يا أستاذ

قالها الأستاذ طريف والتفت إليها ليعرفها عليّ

-الأستاذ محسن مديرنا سيساعدك في أي شيء فهو إنسان
رائع

والآن أترككم معاً وأستاذن أنا فلدي عمل كثير

-خذ راحتك يا أستاذ

-كيف حالك يا رزان أراك جميلةً يا ابنتي ككتابتك

-شكراً أستاذ هذا من لطفك

-سنبداً بالمهم أراني الأستاذ طريف كتابتك فأحببتها ما رأيك
أن تعملني هنا

-أخبرني بذلك وقد وافقت فهذا عرض مغري للغاية
وتحمّست للعمل هنا فسوف أكون عند حسن ظنك إن شاء
الله

-أنا على يقين أنك ستبدعين كعادتك ،ستعملين مبدئياً في
البيت وسنتابع معك حتى تواظبي بين دراستك والعمل

حسناً ولكنني أريد أن أستفسر عن بعض الأمور

على الرحب والسعة يا رزان تفضلي

متى سأبدأ ، وكيف سأكتب أتمنى أن تملوا عليّ بالأفكار
والأحداث وأصوغها بطريقتي كما أرغب بكتابة رأيي في
المواضيع فما يخالف قناعاتي ومعتقدي لن أبدع فيه

-طبعاً يا رزان سنرسل لك مقاطع مصورة فتحولونها
بدورك لمقالات إذ يصعب عليك أن تنزلي بالحدث على
أرض الواقع

أومات لي بالموافقة مع حياءٍ شديد
-سأقدم أفضل ما عندي بإذن الله فقط انتظر وستقرأ ما
يروق لك ويعجبك

فقلتُ بابتسامة.

-بالتوفيق يا رزان

رزان

عندما قال لي المدير بالتوفيق شعرت أن هذا اليوم هو الأول
في بداية المشي بطريق حلمي ويجب أن أبدأ من جديد
بالرغم من أنني خسرتُ شغف ومحمد وخالد للأبد ولكن من
ظل معي يستحق المثابرة حلمي ورفيقاتي أمي وأبي

وأخوتي الصغار سأصل إلى ما أريد وأسعدهم بإنجازي
وحتى هذا سأبقى أحاول وأجتهد

وبعد فترة كنتُ أدرس ما أخذته من دروسٍ وواجبات فجاء
زوج خالتي طريف وقال

ـرزان ستجدين على الإيميل الخاص بي في حاسوبي عدة
مقاطع عليك أن تشاهدها وتكتبي عنها ،حالما تنتهي منها
أرسلها إلى نفس الإيميل

ـحسناً سأذهب لأعمل بها الآن بما أن دراستي قد انتهت
لليوم

ذهب وأحضر لي حاسوبه ففتحته لأدخل على الإيميل
وأشاهد المقاطع كانت مقاطع مؤلمة تصوّر الهجوم وصراخ
الأطفال وأباً ينقذ ابنه ذكرني بأبي فأمطرت عيناى دمعاً
حاراً والقذائف مصوّرة وهي تُرمى فوقهم ،كل شيء كان
يُدمر حقاً

فأخذتُ ورقةً وقلماً من حقيبتي لأكتب

هل سيظل هذا الغيّهان مسيطراً على سماء دولتنا ؟!

هل سيكون المطر ناتج من دماء الأبرياء والشهداء؟!

والرعد ناتج من صراخ هؤلاء الأطفال؟

هل سيتحمل طفل صغير الحرمان من نبع الحنان والحضن الدافئ؟!

هل سنكون ذاهبين لقدرنا ونحن لا نعرف لنموت بسبب رصاصة أو قذيفة فنروي هذه الأرض من دماننا .

بقيتُ هكذا أكتب وأكتب ودموعي تساهم في ملء الصفحات
فما أصعب وضع الواقع الأليم على السطور كتبتُ مقالات
عن هذه المقاطع حتى انتهيت فأرسلتها للإيميل ودخلت لأنام
فيومي التالي في المدرسة متعبٌ وحافل

وفي اليوم التالي بعد خروجي من المدرسة وجدت اتصال
من رقم غريب والكل في الخارج فرفعتُ سماعة الهاتف
لأرد وأقول

-السلام عليكم،مَن معي

ليقول الطرف الآخر

-وعليكم السلام يا رزان أنا أستاذ محسن مديرك بالعمل .

- أهلاً وسهلاً كيف حالك يا أستاذ؟؟

-أنا بخير يا رزان واتصلتُ بكِ لأهنئك على هذه المقالات الرائعة حقاً في كتاباتك سحرٌ خاص تجذب القارئ كما يفعل منظر الفطائر الشهية مع مَنْ يتضور جوعاً.

-شكراً لك أستاذي

-أرجوكِ حاولي أن تأتي للجريدة بأول الأسبوع القادم ولا مجال للاعتذار سنحتفل بأولى مقالاتك وقد نجحت فارتقت بها الصحيفة

-لا داعي يا أستاذ لا تكلف نفسك فهذا واجبي وأنت لم تقصر بحقي

ليقاطعني بدوره

-لا لا ستأتي لا تنسي موعدنا السبت المقبل ظهراً

-حسناً أستاذي إلي اللقاء

لأنهي الاتصال معه والسعادة تملأني وذلك لأن درجة
أختباري اليوم كانت ممتازة

شهد

أخبرتني رزان بكل ما جرى معها وكان حظها رائعاً في تلك
الفترة بين عملها والسعي نحو تحقيق مستقبلها خطوة
بخطوة وظلت المتفوقة بتميز في دراستها الثانوية

مر هذا الأسبوع بين الدراسة والعمل ليأتي يوم الحفل
فأخذتني معها حيث تعمل مع أبي وموظفين أخر أصرت أن
أرافقها بخطوتها الأولى لتكسر حاجز الارتباك بوجودي
معها وقد أنهيت امتحاني في اليوم ذاته فكان الحفل
ضرورياً لي لأخرج من الجو الدراسي المُميت هكذا أقنعتني

فور وصولنا وجدنا المكان مزيناً بالبالين والورود الشامية
العتيقة رائحة البارفان الفرنسي عبقّت في أنفي

بينما كنت أتلقت وأستكشف وأستطلع المكان بنفسي كما
فعلت رزان بجانبني جاء الأستاذ محسن فعرفتني عليه وقد
حفظت اسمه من كلامها عنه رجلٌ ستيني كثير الهيبة قليل
الكلام يمتلك من الحنية كما لو توزع على العرب لانطفأت
الحروب وزاد منه

مرحباً يا رزان مبارك مرةً أخرى
-بارك الله بعمر أستاذي وصاحب الفضل
-لا فضل لي عليكِ أنتِ مَنْ تعبت حتى أنجزت
سألها البعض كم عمرك؟!
-سبعة عشر عاماً

فاجأتهم بعمرها وبراعتها في الكتابة كما فعلت مع أبي
والأستاذ محسن وأمي أما أنا فلم أتفاجأ بها حيث عرفتُ من
خلال أحاديثنا أنني أجلس مقابل مبدعة وكاتبة مشهورة
مستقبلاً هكذا كان حدسي يخبرني وها هي بدأت رحلتها.
وسألها غيرهم

ماهي الأجواء التي تناسبكِ في الكتابة ،الطقوس التي لا بد
منها ليأتيكِ الإلهام الإبداعي

-لا أنا لا أحتاج أية طقوس حتى أكتب ولكنني أحتفظ
بورقةٍ وقلم في حقيبتي دائماً حيث تأتيني الأفكار مبعثرةً
فأرتبها بمفكرةٍ صغيرة

هذا إن كانت الكتابة الخيالية أما الواقعية التي تصف
الهجمات الإجرامية فلا داعي للخيال أن يعمل لا بل أحياناً
أحاول تقليل الأحداث الثقيلة المأساوية ليُصدّق عملي الأدبي
فلو أردتُ تدوين واقعنا لاستمررتُ سنيناً وأنا أكتب بألم
فيراه القارئ كالأفلام الهندية طويلة وبائسة

-آنسة رزان لم تدخل فرعاً جامعياً بعد فهل تطمحين
لدراسة الكتابة بشكل موسع وأكاديمي

-دعكم من طموحي الآن إن غداً لنظاره لقريب

ولكنني الآن أكتب لأنني أهوى الكتابة كما يهوى أحدكم
غطاءه في الشتاء وأنظر للقلم كما ينظر صائماً في حر
الصيف لكأس الماء البارد كما أن ما نعيشه لا بد من تدوينه
وإلا لصرنا عبدة لا قدوة فالتاريخ كثيراً ما يُشوّه

ليدخل فجأة شاب طويل القامة كثير الوسامة حسن المظهر
في العقد الثاني من عمره واقترب من الأستاذ محسن
ليقدمه لنا

- هذا ابني حسن طالب في كلية الإعلام

-رزان الكاتبة الذكية التي بدأت طريقها من جديد وابنة
خالتها شهد

ليقول حسن بترحاب

-مرحباً بك آنسة رزان ،تشرفتُ بك أختي شهد

فالتفتُ إلى رزان لألقاها في حالٍ مختلف تماماً عما كان
قبيل دقائق بريق عينيها حمرة خديها ابتسامتها الحسناء كل
شيء فيها ازداد جمالاً فقد كان اسمه مأخوذاً منه اتساع
عينيها اللوزية وخضرتيها بشرته الحنطية المذهلة غمازاته
الجذابة وحتى عكفة أنفه فيها سحر لطيف وأرى أن رزان

شُغِفْتُ فِيهِ حُبًّا رَغْمَ كُلِّ مَا يَمُرُّ بِهَا كَمَا رَأَيْتُ هَذَا عِنْدَهُ
فَشَهِدْتُ مِيلَادَ حُبِّ جَدِيدٍ أَمَامَ عَيْنِي وَقَالَتْ لَهُ بَتَعَثْلِمُ شَدِيدٌ
وَارْتَبَاكَ وَقَدْ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ بِكُلِّ رِيَاحَةٍ مَعَ بَقِيَّةِ الْمَوْظِفِينَ
وَكَانَهَا الْكَاتِبَةُ الْكَبِيرَةُ الْعَمَلَاءَةُ الَّتِي أَتَلَفَتْ سِتِينَ سَنَةً مِنْ
عَمَرِهَا فِي الْكِتَابَةِ

- مَرْحَبًا أَسْتَاذَ حَسَنَ

قَالَتْ اسْمُهُ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ فَشَعَرْتُ بِمُخْرَجِ الْحَاءِ كُلِّ مَا
تَعِيشُهُ الْآنَ مِنْ حُبٍّ وَحَرْبٍ حَرٍّ وَحَيَاءٍ حَلَاوَةٍ وَحَيَاةٍ حَسْرَةٍ
عَلَى الْمَاضِي وَحُلْمٍ تَنْتَظِرُهُ وَحَقِيقَةٍ أَمَامَ أَعْيُنِهَا وَحَمَامَةٍ
تَحُلِقُ دَاخِلَهَا فَرَحًا لَمَّا تَرَاهُ

وَمَعَ السَّيْنِ شَعَرْتُ بِسَلَامٍ دَاخِلِي وَسَيُوفٍ مَسْلُوءَةٍ وَسُرْمِينَ
الَّتِي سَتَشْكُرُهَا حَيْثُ عَرَفْتُهَا عَلَيْهِ سَمَاحٌ لِقَلْبِهَا أَنْ يَنْفَتِحَ
لِلْمَرَّةِ الْأُولَى بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَ سَحَابٌ يَمُطِرُ دَاخِلَهَا حُبًّا سَفَرًا
مِنْ وَاقِعٍ لَخِيَالٍ سَقُوفٌ مُهْدَمَةٌ وَسَقَايَا قَلْبِهَا الْيَابِسِ
أَمَّا النُّونُ فَقَدْ خَتَمَتْ فِيهَا نِيرَانَ الْحَرْبِ دَاخِلَهَا وَبَدَأَتْ فِيهَا
نَرْجَسًا وَنُورًا وَنَوَالٍ الْمُرَادِ

حَسَنَ

دَخَلْتُ الْقَاعَةَ الْكَبِيرَةَ فَوَجَدْتُهَا مَعَ أَبِي بِجَمَالِهَا وَدَلَالِهَا
فَتَمَنَيْتُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي أَنْ تَكُونَ هِيَ حَيْثُ حَلَمْتُ مِنْذُ الصَّغَرِ
أَنْ أُرْتَبِطَ بِفَتَاةٍ لِعَقْلِهَا قَبْلَ شَكْلِهَا وَقَدْ قَرَأْتُ مَا كَتَبَتْهُ رِزَانُ
وَذَلِكَ لِإِلْحَاحِ أَبِي فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَمَّا حِينَ بَدَأْتُ أَقْرَأُ فَصَارَ

الإلاح من عقلي الذي أبى الناس قبل أن ينهي كل
كتاباتها وقلبي الذي شغفته حباً قبل أن تراها العيون لكنه
رآها

وعندما عرفني أبي عليهم شعرتُ بنفسي أحلق وأطير
للأعلى من شدة الفرح

- الحقيقة أصبحتُ لا أحب التجمعات والمقابلات ولا حتى أن
أتكلم كثيراً

-وأنا أيضاً يحصل معي الشيء نفسه تقريباً
أدرس بكلية الإعلام قسم الصحافة حتى أعمل مع أبي وطبعاً
يشرفني أن تعلميني
دخلتُ بكل جرأة بصميم الموضوع

-بالطبع يسعدني أن أساعدك بأي شيء أستاذ حسن
جاء الأستاذ طريف مع أبي وقال

-إذا ستحضر رزان معي كل يوم خميس بعد المدرسة هنا
كما سيأتي حسن حتى تعلمه قليلاً

فأجابه والدي

-رائع يا رزان أبشرك حسن طالب مجتهد وبارع بمجال
إنشاء مواقع التواصل على الإنترنت منذ صغره فهو يحب

كل ما يتعلق بالتكنولوجيا ممكن أن يساعدك حتى تكتبي
على موقعك الخاص

فقلت بابتسامة شديدة الجاذبية - هذا شرف لي وأتمنى أن
يساعدني

رزان

في الحقيقة لقد تراجعت ومن الممكن أن أكون أصدقاء
عمل فهو شاب مهذب كما رأيتُ فيه أخي الكبير محمد الذي
فقدت ، وأتمنى أن لو كانت صديقاتي معي

وذهبت للبيت فدخلت غرفتنا الخاصة التي شاركتُ شهد فيها
وكدت أنام لأجد شهد تدخل على غرفتي وتقول بحزن
-رزان أيمكنني الجلوس معك ؟

قلت لها بحب

بالطبع يا شهد الغرفة غرفتك وضحتُ بعدها فلاحظتُ
احمرار عينيها

،مالذي يبكيك هيا قللي

-أشعر بالوحدة إذ لا أملك الأصدقاء

-ولماذا؟!!

- لا أعلم أراهم جميعاً يبتعدون عني هل تريني قبيحة
-بل لأنك الأجمل هنّ الطالبات في المدارس وخصوصاً في
مثل هذه المرحلة العمرية تكثر غيرتهنّ وأنت أيضاً بذكائك
وشعبيتك تثيرين الغيرة في قلوبهنّ ولا تقوى إحداهنّ على
كبح جماح غيرتها فما الذي تفعله
ابتسمت بألم ورفعت حاجبها مع كتفها
-لا تفعل شيء بل تنأى عني وتتركني لجمالي وعبريتي.

أحزنني موقف شهد من الفتيات الأخريات وذكرتني ببراءة
تُرى كيف حالها الآن
نظرت في عينيّ شهد ورأيتُ فيهما الألم والحزن فتأثرتُ
على حالها إذ أُصيبتُ قبل سنوات بحروق في وجهها ويدها
زالت الحروق لكنها تركت أثراً وراءها رغم جمالها
وبراءتها وذلك جراء هجومٍ عنيف ضرب قريتهم فقذفوا
بقطع الخشب المشتعل على البيوت كما حاولت خالتي أن
تتوصل لشهد وتنقذها وتمكّنت من ذلك بصعوبة بالغة حيث
وجدتها وقد أصابها من إجرامهم)

قلتُ لها بحب

شَهِدَ أَنْتِ كَأَخْتِي تَعْرِفِينَ ذَلِكَ جَيِّدًا رَغِمَ أَنِّي لَا أَقْعِدُ مَعَكَ
طَوِيلًا وَلَا أَحَادِثَكَ كَمَا يَنْبَغِي وَلَكِنْ كُلُّ مَا صَرْتُ إِلَيْهِ الْآنَ
وَمَا سَأَكُونُهُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَمَنْ ثُمَّ دَعَمَكَ لِي وَهَذَا لَنْ أَنْسَاهُ لَكَ
أَبَدًا فَأَنْتِ الصَّدِيقَةُ بِاخْتِفَاءِ صَدِيقَاتِي وَالْأَخْتِ الَّتِي لَمْ تَلِدْهَا
أُمِّي أَنْتِ يَا شَهِيدَ مَنْ أَعَدَّتْ لِي الْحَيَاةَ بَعْدَ مَوْتِ أَخَوَيَّ
وَصَدِيقَتِي الَّذِي تَسَبَّبَ لِي فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْمَشَاكِلِ وَمِنْ الْيَوْمِ
سَأَكُونُ صَدِيقَتَكَ لِأَرْدَ لَكَ جِزْءًا مِنْ جَمِيلِكَ وَأَنَا أَرْغَبُ
بِمَصَاحِبَتِكَ

نَامْتُ شَهِيدَ بَجَانِبِي كَمَا تَنَامُ طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ تَتَضَوَّرُ جَوْعًا
وَأَمَامَهَا طَبَقٌ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ الطَّازِجَةِ أَمَا أَنَا فَجَلَسْتُ أَتَأَمَّلُ
تَفَاصِيلَ وَجْهِهَا الْمَلِيحَةِ وَمَلَامِحَهَا الْعَذْبَةَ فِي نَوْمِهَا.

مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَبَقِيْتُ مَعَ حَسَنِ يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ الْآخِرَ حَيْثُ تَعَلَّمْتُ
مِنْهُ الْكَثِيرَ بِمَجَالِ الْإِنْتَرْنِتِ الْوَاسِعِ وَبِرَافِقِ الْحَاسُوبِ
لِلتَّوَاصُلِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعُرُوضِ التَّقْدِيمِيَّةِ كَمَا أَنْشَأْتُ لِي حَسَنَ
مَوْقِعِي الْخَاصِّ لِأَكْتُبَ فِيهِ أَوْلَى رَوَايَاتِي الَّتِي تَمَّ تَنْزِيلُهَا
عَلَى مُؤَشِّرِ الْبَحْثِ جُوجِلْ ، فِي الْحَقِيقَةِ تَطَوَّرَ أُسْلُوبِي كَثِيرًا
فِي الْكِتَابَةِ وَهَذَا بِفَضْلِهِ، كَمَا عَلِمْتُهُ الْعَدِيدُ مِنَ الطَّرِيقِ
الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْكِتَابَةِ وَسَاعَدَتْهُ بِكِتَابَةِ بَعْضِ الْمَقَالَاتِ الْبَدَائِيَّةِ
الَّتِي تَفِيدُهُ فِي مَجَالِ الْإِعْلَامِ

كما ساعدته ليقراً بعض الكتب التي كنت قد قرأتها من قبل
،بقينا على تلك الحال نتعلم ونستفيد ونستمتع حتى اقترب
امتحاني في العام الأخير بمرحلتى الثانوية

زينب

استمر الحال في سرمين بين أختي فيحاء وزوجها وابنتها
اللطيفة قضينا أيامنا هنا بسلام صوت القذائف موجود لكنه
بعيد جداً وجودنا هنا لا يشبه ما كنا عليه في حلب تحسنت
رزان بشكل كامل و مفاجئ فمن رآها بالحالة التي قدمنا
فيها إلى سرمين لا يعرفها الآن حتى ملامحها تغيرت وقد
تعرفت على شاب مهذب ابن مدير الصحيفة التي تعمل بها
حيث صار يعلمها ويساعدها في دراستها والآن أنهت
امتحانها للمرحلة الثانوية

وننتظر نتيجتها على أحر من الجمر فالحلم يقترب منها
وتركض هي نحو تحقيقه كم أتمنى أن تلتقى به ذات يوم.

رزان

ذهبت كعادتي كل يوم لأسلم بنفسى المقالات التي أنهيتها
للأستاذ محسن

نظرت حسن فلم أجده وقلت لا بد أنه في مكتب أبيه لأذهب
لمكتب الأستاذ محسن

السلام عليكم كيف حالك أستاذ؟
وعليكم السلام مرحباً بابنتي رزان
- أهلاً بك أستاذي لمَ لم يحضر الأستاذ حسن .

ليرد بقلق
- لا أعرف يا رزان أخبرني بأنه سيأتي اليوم مبكراً

رددتُ عليه وقد جأني شعور القلق نفسه عند موت أخي
وشغف
- هل اتصلت به

- حاولتُ مراراً وتكراراً لكنّ هاتفه مغلق

جاءه بعد قليل اتصال ليقول
- نعم أنا مَنْ؟....ماذا؟!.....أين هو؟؟....هل هو بخير

وأغلق هاتفه لأقول له بذعر
- ما الأمر أ هناك حدث خطير؟؟

فأجابني وهو يللم أغراضه

-حسن يا رزان

وبدا يبكي حيث يداه لم تعد تقوى على حمل حقيبتيه
فساعدته وقلت

-ما به حسن قل يا أستاذ ...

لا بأس سأتي معك

-ركبتُ سيارته وذهبنا حيث أخبرني إلى مشفى الحياة
فحسن أسعف قبيل قليل إلى هناك

دخلنا المشفى فأخبرنا أحد أصدقائه بإصابته بالجروح حيث
كان يغطي مكان الحدث ويصور الانفجارات المتوالية في
إحدى القرى.

دخلنا الغرفة الطبية الخاصة بالمصابين الجدد في المشفى
لنجد حسن وفي يده اليمنى دمٌ قانئ اللون أخافني للوهلة
الأولى حيث ظننته خارجاً منه كما أن وجهه امتلأ بالجروح
و الإصابات تمكنت من جسده فأقلقتني وهو ينظر للفراغ .

ليركض إليه والده ويضمه برفق

-لماذا يا حسن تقلقنا عليك..حمداً لله على سلامتك والشكر
له أنك ما تزال بخير

فقال حسن دون وعي وكأنه لم يسمع شيء مما قاله أبيه
ولا يزال معلقاً نظره في الفراغ
- لقد مات يا أبي

سأله والده باستغراب

- من مات؟ قل

دخل زوج خالتي وألقى التحية علينا

- أهلاً أستاذ طريف

هكذا رد عليه الأستاذ محسن أما حسن فما زال ساهماً في
اللاشيء

وقال بدموع كاحلة

- مات صديقي الوحيد.... مات خالد يا أبي مات بين يدي
... ما استطعت أن أفعل له شيئاً ... كان يحلم بأن يصبح
صحفياً تركني وحيداً وحيد يا أبي وحيد

نظرتُ له وبكيتُ حالته بكيتُ صديقه صاحب الحلم الذي مات
قبل وصوله إليه بكيتُ خالد أخي الذي مات قبل أن يرى
شيئاً من حلو الحياة فقد رأى الحرب ولم يرَ من السلام
شيء

تحسرتُ على محمد وشغفي تألمتُ لحال حسن فأول مرة
أراه مقهوراً يتألم

حسن

فارقْتُ خليلي ورفيق عمري خالد ذاك الشاب الطموح
صاحب الهمة العالية التي انتقلتُ إليّ بالعدوى تركني حبيب
قلبي ليخلد هناك في ذاك المكان البعيد ،أسعفوني للمشفى
فتمنيْتُ أن أرى رزان التي كان مجرد التفكير فيها يداوي
آلامي

وحين قدمتُ مع أبي بشكلٍ غير متوقع استغربتُ ردة فعلها
بعد أن أخبرتهم بوفاة صديقي حيث توقعتُ منها أن
تواسيني وتدعمني كما فعلتُ من قبل وأنا في حالةٍ أفضل
من هذه بكثير لكنها لم تفعل بل تركتني هي الأخرى
وركضتُ خارجاً

سأل أبي الأستاذ طريف

- ما بها رزان أعندها "حساسية" فوبيا من المشافي !!

-لا لا ولكنها مرت بالكثير

فقلتُ له

-بالكثير !!!

- لا بل الأكثر فقد توفي أخويها وصديقتها وغادرت بيتها
ومدينتها كما أنها فارقت صديقاتها الأخريات ولا تعلم عنهن
أي شيء بسبب الهجوم الغاشم على حيهم

نظرتُ له بصمت وقلتُ بسري :لقد مرت بالكثير حقاً إنها
قوية فلو وصل لي يا رزان أن أضحي بحياتي لأجلك فسأفعل

رزان

خرجتُ لأجلس بحديقة المشفى حيث أردتُ أن أبتعد قدر
الإمكان إذ آلمني منظره و كم أكره أن أراه منكسراً يكفي
هذا فقد تعبت لماذا عليّ دائماً أن أفارق أحبتي أو أراهم
يتألمون ولا أقدر على التخفيف عنهم

رغم سماعي لأصوات الأنين والوجع والصراخ وجدثني
فجأة منعزلة عنهم جميعاً لأتذكرهنّ وأتذكر جلوسنا تحت
النجوم وضحكنا وصادقتنا أتذكر كل شيءٍ جميلٍ مرّ معي
بينهم ،فانهمرت دموعي بغزارة لتمسحها أصابعٌ متوهّجة
وباردة في الوقت نفسه

التفتُ بسرعة والمفاجأة تفرش تفاصيلها على ملامح وجهي
لأجده حسن بعينه التي تنزف دمعاً وقهراً

-هوني عليك يا رزان

لم أقوَ على التلقّظ بأي كلمة وأجبتّه حين ارتميّت بحضنه
ورجفتُ يداي التي أمسكت بقميصه المهترئ بسبب الإصاّبة
-أحبك يا حسن أحبك لا تدعني أرجوك فقلبي رغم اتساعه
إلا أنه لم يعد يحتمل
-أنا معك حبيبتي

ساعدته في تعقيم جروحه كما عرفتُ أن الدم الذي يغلي
على يده اليمنى كان من رأس صاحبه خالد فتأثرتُ باكيةً
وأنا أمسحه

كما ساعده والده بتغيير ملابسه

ياسر

تابعتُ التدريس لطلاب المرحلة الإعدادية وأعدتُ معهم
تجربتي فتذكرتُ حين كنتُ في سنهم أحلامي وطموحاتي كما
تذكرتُ ابني محمد عندما كان في هذه المرحلة العمرية كان
لديه هاجس بأن يحقق المزيد وكنتُ أحلم معه والسعادة
تحاوطني من كل جانب كم أنها مرحلة ممتعة وحين وصلتُ
بذاكرتي لرزان وهي في الإعدادية خفق قلبي أي وقتٍ هذا
مرت به خطرٌ وموت وفقدان

وفي اليوم الأخير من السنة الدراسية احتفلتُ وطلابي
والتقطنا بعض الصور للذكرى كما كنتُ أتحرى أخبار صدور
نتائج الثانوية فكنتُ على يقين بأن رزان ستبلغ غايتها حيث
اجتهدت وسعت نحو ذلك

رزان

وهكذا مرت الأيام كلمح البصر أنجزتُ فيها الكثير من
الأعمال كما تم تنزيل كُتبٍ كثيرة لي ،من رواياتٍ وقصصٍ
وأشعار وقد ساندني حسن فكان معي خطوة بخطوة ،
و في اليوم الموعد الذي ستصدر فيه النتائج

كان الجميع في ارتباكٍ وحماس وقد أحاط التوتر بكل شيء
من حولي جلس الكل ينتظر أن يأتي حسن بنتيجتي تمنيتُ
لو أنني ذهبتُ معه ترقبتُ وصوله بالخبر اليقين لكنه تأخر
راقبتُ عقارب الساعة لأجدها أبطأ مما أظن وتمضي الدقيقة
وكانها أيام

وأخيراً أطلّ حسن بوجهه العابس المتكدر ولم ينبس ببنت
شفة قبل أن أركض إليه وأسأله بلهفة يشوبها القلق أعرف
أنني ناجحة ولكنني أخشى ألا تؤهلني درجاتي لدخول الطب
فيضيع حلمي

- كيف يا حسن أخبرنا ما بك هيا قل

- أنتِ يارزان بذلتِ جهدكِ ولكن

- لا معدل قليل لا يدخلني الطب.. ماذا

- لا بل معدل عالي يا رزان

وضحك من أعماقه كما لم أره يضحك من قبل فحضنني
وهو يقول مبارك يا رزان مبارك يا طبيبتنا

عانقتي أمام الجميع وكانت المرة الأولى التي نتعانق فيها
أمامهم

بارك لي كل من حضر الفرحة تلك

رأيتُ بريقاً في عيون أمي وأبي قد فارقهم منذ زمنٍ بعيد
ركضتُ إليهم أقبل أيديهم وكدتُ أنزل إلى أقدامهم لولا أن
أبي نهض بي فحملني أمام الحضور وهو يصرخ
-حلمي حلمي ها أنا ذا واقفٌ و حلمي قيد التحقيق .

ودخلتُ إلى كلية الطب في محافظة إدلب برفقة حسن الذي
أبى أن يدعني وحدي في عالمٍ جديد لا أعرف عنه شيء
وكان الأستاذ محسن يوجّهني دائماً ويقدم لي النصائح كما
يفعل أبي وأكملتُ مسيرتي بالكتابة إذ بدأتُ بكتابة روايةٍ
جديدة بعنوان "على الضفة الأخرى" وحين أنهيتها أقمنا
احتفالاً بسيطاً فكانت ليلة جميلة مليئة بالأفراح إذ حان وقت
التحليق بحلمي في عنان السماء.

بعد ذهابي للجامعة انبهرت كثيراً بكل شيء وأحببتُ
التخصص في قسم الأطفال لطالما أحببتهم منذ
الصغر، حاولتُ أن أوازي بين الجامعة والعمل بالصحيفة
فكان يومي مليئاً بالكثير من الأشياء أهمها القمة التي أسعى
إليها والتي منذ أن بدأتُ بالجهد والعمل وضعتها نصب
عيني

لقاء صديقتي من جديد وتحقيق حلمنا، وأن أعين عائلتي
على نسيان ما مر معنا من صعوبات وعثرات،

كان والدي يتذكر بين الحين والآخر محمد وخالد فيبكيهما
وكأنهما يموتان من جديد كما لو أنه يخبر بفراقهما للتو
والسنوات لم تنقض على رحيلهما وكل هذا لم نتمكن من
معرفته لولا أنني قصدت الباب لأستعير كتاباً من غرفة عمي
طريف حيث دلني على مكانه فدنوت من الباب لأسمع نحيباً
وكان من أبي

لم أشأ أن أخرج في تلك اللحظة ولكنني بعد ساعة ذهبتُ
إليه واحتضنته فلم أعد أقدر على الصبر وأراه يتوجع
وأسمع أنينه في أذني

كما أن صورة محمد وقميصه و لعبة خالد أشياء لا تفارق
حقيبة أُمي التي حاولت أن تتظاهر بالنسيان

سأكون الطيبة التي يحلمان بها وسأعالج ذاكرتهما قبل
معالجة أي شيء آخر

تعلّقتُ بحسن وصار قريباً مني أكثر من أي شخص آخر
ألفتُ وجوده معي فصار من أحب الأشياء إلى قلبي

لا لا لم يكن شيئاً كثيراً ما يخونني تعبيري حين يكون
الحديث عنه وقد ازداد المديح في أسلوبِي الكتابي وأعجب
الكثير بكلامي وجزالة ألفاظي.

في نجاحي بالسنة الثالثة في كلية الطب قدم لي حسن بهدية
مغلّفة فقال لي

-ألا تفتحينها وتبين لي رأيك

-بلى سأفعل فعندي من الفضول ما يرهقني حتى أعرف
ماهيته

وضحكنا سوياً

فأزلتُ الشريط المربوطة به وفتحتها لأجد كتاباً
بغنوان "على الضفة الأخرى "

وتحتة اسمي الثلاثي مدوناً بخطٍ عريضٍ مسطرٍ

- ماذا إنها روايتي قد طبعتها يا حسن من أجلي شكراً لك
ياعزيزي هذه أجمل مفاجأة على الحقيقة

-ليس هذا فقط بل استطعتُ أن أتواصل مع بعض المكتبات
بمعظم أنحاء الوطن العربي حتى تتوفر لدى نطاق واسع من
القراء

فنظرت له نظرة شكر وامتنان لطالما كان معي بسعادتي
وحزني نال من قلبي ما لم ينله أحدٌ قط،مضى ذلك اليوم
بسعادةٍ عائلية جميلة وقدموا لي هدايا رائعة حقاً، أتمنى أن
أهديهم بدوري تخرجي ونجاحي على أرض الواقع.

محسن

انقضت سنوات والصحيفة تتقدم وتتطور وذلك بفضل رزان
والكتاب الآخرين الذين يبذلون جهوداً مضاعفة كما أنني
سُعدتُ بتخرج حسن إذ صار إعلامياً ماهراً وساعدني
بنهوض صحيفتي

كما تمنيتُ أن يجمع الله بين رزان لطالما أحببتها
كابنتي و رأيتُ فيها سمات الخلق والثقافة والرقى فأحببتها
معاً ليكمل كل منهما الآخر وأرى أن حسن يحتاج زوجةً
صالحةً حنونة تنسيه أحزانه وآلامه وتحبه وأراها رزان
التي ستقدر على أن تكون له كما يلزم فهي على خلقٍ رفيع
وبالٍ طويل وقلبٍ كبير

زينب

قضيتُ وقتاً ممتعاً مع فيحاء حيث أشعرتني أنني في بيتي
كما أسعدني وجود شهد الفتاة البريئة اللطيفة التي تحب
رزان كأختها وأبيها طريف الذي كان رفيقاً لزوجي و نعم
الصديق فقد أحبه ياسر وفتح له أبواب قلبه حيث لم يصادق
أحداً سواه في هذه المدينة ،

ألحقتُ الأولاد في المدرسة وبذلتُ جهدي في تدريسهم
أما رزان فأدخلت السعادة من جديد إلى قلبي بدخولها فرع
الطب البشري الذي أحبته منذ صغرها وطمحت له

شهد

في الحصة الثانية من دوامي في يوم الثلاثاء وصلنا خبر
استشهاد دلال رفيقتي الجديدة التي أهديتها قلبي وأهدتني
كل شيء وعندما ذهبت مع أبيها لتهريب أخوتها من واحدٍ
من أحياء حمص المحاصرة حيث منعوا والدها من العبور
وحده وقبلوا دخول العائلة فأخبرهم أنه يمتلك ابنتاً واحدة
وأما مطلقاً فسمحوا لهما بالدخول لتأتيها رصاصة قنّاص
مجرم في أول الأمر لم أستوعب الفكرة ولكنني تقبّلتُ حدثها
بعد دقائق وذهبتُ من المدرسة إلى المنزل وأنا مقهورة
أشعر بصخورٍ جاثمة فوق صدري وجدتُ صعوبةً بالغة في
عملية التنفس

حتى الدموع لم تجد لها سبيلاً للخروج من مقلتي
كان كل شيءٍ معتم تحسستُ بصعوبةٍ قصوى يد الباب
لغرفتي ودخلتها لأرتمي على سريري تمنيتُ لو أنني أنزع
كل الأفكار من رأسي وأنام لكنني لم أقدر على فعلها
إلا أن دخلت رزان وأرادت أن تخبرني شيئاً لكنها لحظتُ
حزني فقالت بصدمة

-شهد أكنتِ تبكين ما الذي حصل.... مابك.... قولي

-أتذكرين حين أخبرتكِ بأن صديقتي الوحيدة دلال التي
ذهبت مع أبيها منذ فترةٍ ليست بالطويلة إلى حمص لتأتي
بأخوتها

-نعم أذكر ما بها

-استشهدت

وانفجرتُ باكيةً بعد أن كنتُ أعاني من جفاف دمعي
فعانقتني وبكتُ معي

- لم يبقَ لي أحد يا رزان بالأمس كنا سوية والآن تركتني
لوحدي

-رحمها الله لا تقولي هذا فأنا هنا صديقتك وأختك ألا
يرضيك ذلك

- بلى والله ولكن الفراق صعبٌ جداً

-سنة الكون هذه يا شهد مواليدٌ جديدة وأموات وهناك أفراحٌ
وأحزان فاعتدلي بحزنك كما تعتدلين بالفرح والله سيبتلينا
بالفقد والفراق لينظر صبرنا

بكيتُ ولم أستطع الرد

فأكملت

-ستصبرين ويربط الله على قلبك يا حبيبتي فقط أكثرني من
ذكر الله والدعاء لها

-إن شاء الله

حسن

جلستُ في غرفتي أتذكر مواقف مع رزان

كم أنت رائعة يا رزان وجدتها وقعت في نفسي فأحببتها
بشدة لما رأيته فيها من الأمل والحياة رغم كل المعوقات

يظل أملها كبيراً وظنّها بربّها جميلاً ، وهذا ما أحلم فيه
بفتاة أحلامي من اليوم لن أتركك يارزان وستكونين معي
للأبد

رغم أنني إعلامياً ماهراً حيث يمدح الجميع من طريقة
تقديمي للأخبار والتمهيد لها والإحفاء بها إلا أنني شعرتُ
بارتباك في هذا الأمر بالتحديد

كيف أصارحها بالحب الذي زرعته داخلي!

أعرف أنها مرت بالكثير كما أعرف أنها لا تفكر بالارتباط
بهذه الفترة ولا بالزواج فكيف أتقدم لها

تدربت كثيراً وتمرنْتُ على الحديث معها ولكنني أفشل في
كل مرة أووووووه ما أصعبها ،

قررتُ أن أدع الأمر للصدفة حيث يلهمني قلبي أن أخبرها
فسوف أقولها بطريقة تلقائية وعفوية

وخلدتُ إلى النوم بعد تعبٍ طويل

رزان

ذهبتُ في أول أيام الأسبوع للجامعة فسمعتُ نداءً باسمي
من إحدى طالبات دفعتي وكانت فتاةٌ هادئةٌ تجلس بمفردها
على أحد كراسي الحديقة التفتُ إليها فأشارت لي أن أجلس
بجانبها وفعلت لتقول لي بتوتر

-رزان أتقبلين بي صديقةً في جميع الحالات فأنا أحب
إصرارك وذكاءك أحب كل شيءٍ فيكِ وأتمنى أن أكون
مثلكِ وأتقرب منكِ

-بالطبع يا ملاك فنحن أصدقاء بإذن الله
-في الحقيقة أحببت أن أتعرف عليكِ فأنتِ الوحيدة التي
شعرت معها براحة كبيرة

- في هذا شرفٍ لي يا ملاك وأنت فتاةٌ رائعة حقاً

فقلت بفرح وهي تمد يدها لي -أصدقاء !!!

لأمد أنا يدي بالمثل وأقول
-أصدقاء ولآخر العمر بإذن الله

سُعدتُ بصداقة ملاك التي تشبه شغفٍ إلى حدٍ كبير فأظنها
هديةً لي من الله وما أحلاها من هدية،

زينب

مضت خمس سنوات مع رزان حيث وزّعت وقتها بين العمل
والدراسة و أصبحت من أصحاب الشهرة الكتابية حيث
رفعها قلمها وفكرها ،صار لها العديد من الكتب باسم الكاتبة

رزان ياسر خلف وهذا ما زاد من فخري وأملي وذلك بأن
الكل يقرأ ما تكتبه ويأتي أحدهم ليقول رزان كاتبتني
المفضلة الحمد لله ألفاً على هذه النعمة كما أن علاقتها
بحسن توطدت فساعدتها بكل مراحلها العملية وكان سنداً لها
أما الآن فلم يبقَ لها إلا عامٌ واحد لتبلغ غايتها وتحقق
حلمها بالتخرج من الكلية الجامعية

رزان

كانت ملاك رائعة جداً وخفيفة الظل هَوّنت عليّ الكثير من
المصاعب التي مررتُ بها
كما أنها وحيدة لا أشقاء لها و لا أصدقاء أما والديها فكانوا
أشخاصاً نبلاء
حيث صارت تأتي لتبيت معي وشهد كما أنها أحبّت شهد
وصادقتها كما أنها اعتادت أن تقرأ كل شيء أكتبه
وتعطيني رأيها حيث أصبحنا كالأخوة .

وجاء يوم بينما كنت في مكتبي بالصحيفة طرق حسن الباب
ودخل المكتب

-السلام عليكم كيف حالك اليوم

-وعليكم السلام أهلاً وسهلاً بك يا حسن

-أريدك بموضوع هام أليك وقت

-تفضل كلي آذان صاغية

- أنا أحبك حقاً يا رزان

وأجريتُ استفتاءً لكل جوارحي فاخترتكِ بكل إصرارٍ
وعزيمة

أريد أن أرتبط بكِ يا رزان وأنتِ لا تعرفين فعلاً كم عانيت
بترتيب كلماتي تلك التي سأقولها لكِ
أحبك من أعماقي

-لم أقل لكِ فاجأتني فلستُ بتلك المثالية توقعتُ منك ذلك
وربما لأنني أحمل اتجاهك المشاعر ذاتها ولكنني

قاطعني حسن بقوله

- أعرف يا رزان صديقاتك وحلمك سأساعدك في كل شيء
عليك أن توافقي فقط وتتقي بي هذه المرة أرجوكِ
تكرّمي عليّ بالقبول وسأجعلك أسعد فتاة على هذه
الأرض

وإن لم تفعلي فأعدكِ ألا أغير معك وسأبقى رفيقكِ طالما
تريدين ذلك

في الحقيقة أسعدني بما قاله فقد أُعجبت به وبدأ حبه يتغلل
داخلي فصار جزءاً هاماً من حياتي

فقلتُ له بحماسٍ وحب

-أوافق على الأستاذ حسن بن محسن زوجاً لي كما أتمنى
أن أكون قرّة عينٍ له كما كان لي

فرح حسن كثيراً وشعرتُ بوميض سعادةٍ يضيء بعينيه التي
أوصلتُ لي رسالةً تحمل الحب والدفء كما كانت تحكي
الكثير وأنا أفهم مباشرةً

رن هاتفِي الجوال الذي أهداني إياه حسن ورددتُ ليأتيني
صوت صديقتي ملاك

- السلام عليكم كيف حالك يا روز

-الحمد لله كيف حالكِ أنتِ

-بخير الحمد لله ،كيف كان عملك اليوم

-بلا مقدمات لقد طلب حسن يدي للزواج

-ماذا ؟! الحمد لله هذا من أجمل الأخبار التي سمعتها اليوم

- أهنأك أخبار أخرى يا ملاكي

-تعرفين وزن ابن عمتي تقدم لخطبتي اليوم والحقيقة أنني فرحت بطلبه جداً ،فأنتِ تعرفين أنني أحببته منذ الطفولة

-مباركُ لكِ ملاكٍ ،يا له من يومٍ جميل ،بقي منا شهد فلنسعَ في البحث لها عن عريس

-هههههه مهلاً مهلاً يا رزان أنسي تي أنها تصغرنا سنأ

-نعم لاتزال صغيرة على الارتباط كما أننا لم نكبر بعد

-ههههههه لا يا عزيزتي بل هرمنأ

-أنتِ فقط منَ هرمت أما أنا فما زلت شابةً يافعةً لدي من الأحلام مالم أحققه بعد

-ستحققينها يا صغيرتي

-هههههه إن شاء الله بالمناسبة ملاك أنا أحبك جداً وأكرر تهنئتي لكِ

-وأنأ أيضاً أحبك

هيا انهضي للدراسة فلم يبقَ عندنا الكثير من الوقت نتعب ونقدم وتسكننا الراحة

-إن شاء الله وسنتحدث كثيراً

-نعم نتحدث لأننا الآن نعاني من قلة الكلام

-هههههههه

انتهت محادثتنا وانتقلتُ للدراسة فهذا عامنا الجامعي الأخير
ونتخرج لنحقق حلمنا

وبعد أيامٍ من إنتهاء آخر امتحانٍ لي جلستُ أشاهد في إحدى
القنوات نشرة الأخبار لأجد اسم معلمٍ قد توفي وهو رجلٌ
مصري

غيرتُ القناة أكثر من مرة فكانت الأخبار كلها تحكي عنه
وعن وفاته للحقيقة زاد من فضولي أن أعرف ماذا فعل
هذا الرجل ليتكلم عنه الكثير !!

وجدتُ على بعض المواقع والصفحات فقد كان مدرس لمادة
اللغة الإنكليزية ،حيث كان يُدرّس بإتقان دون كلل أو ملل
فكان يعطي المعلومات ولا يبخل على طلابه بها ، بكاه
الكثير من طلابه ورثاه العديد منهم حيث كان أباً روحياً لهم
قبل أن يكون معلمهم وقد جذبتني إحدى الجمل التي كثيراً ما
رددتها

{طالما هناك ساعة ،طالما هناك دقيقة ،طالما هناك ثانية ،
فالأمل موجود}

هذه الجملة أعجبتني وبشدة حيث ألفها بنفسه ولم يقتبسها
، فتحدث الكثير من الطلاب عنه وعن الثمار التي زرعها
فيهم

حين كتبتُ اسمه "حاتم عزب" وقد ظهر لي كل شيء عنه
المديح والمقولات الأصدقاء والأهل الجميع يذكره ويدعي له
بالرحمة والمغفرة

، وهل يوجد أفضل من هذا أنه بعدما ذهبت روحه لبارئها
ظل الكثير يتذكره ، فقلتُ في نفسي لمَ لا أتكلم وأكتب عن
الأشخاص الذين أثروا بالكثير وغيروا مسار تاريخنا لا
يمنعني شيء وقد شجعني حسن على الكتابة عنه وعن كل
مَن هو مثله، وبالفعل كتبتُ عن هذا المعلم وقد أعجب بها
الكثير حتى جملته اتخذها الكثير من الناس كمبدأ لهم
بالحياة .

وبعد فترةٍ من خطوبتنا أنا وحسن وقد زاد حبه في قلبي

جلستُ على أريكتي وأمسكتُ بورقةٍ وقلم لأكتب

*لقد أشتقت لأُملي وبراءتي قد فارقتهم داخل هذا الغيهبان
المسيطر على وطني ، سيطر هذا اليباب على منطقتنا
، وانتشر الدمار وتحطمت الذكريات لأشلاء بهذا المكان
المُحاط بالأعداء ، سأبحث عنكما وسأحرص على أن أجدكما
مهما طال بي الزمان ولاأخرنفس لن أياس بإعادة

المحاولة. وأنتِ يا شغفي يجب أن تعلمي أنني لن أفقد
الشغف الذي عهدتكِ عليه سأظل أحاول وأجاهد ومعى حسن
وأهلى وملاكى لأجد صديقاتنا ونحقق حلمنا معاً*

كتبت هذه الكلمات لأننى كلما أشعر بنفسى وأحن للماضى لا
أجد من يحتضن مشاعرى غير أوراقى التى أبعثرها دائماً
مع ذكرياتى حيث أحتفظ بها فى ذاكرتى وقلبى

ظهرت النتيجة المصيرية عن طريق أبى هذه المرة
-رزاااان مبارك يا حبيبى مبارك يا طبيبتى يا حشيشة قلبى
-بارك الله بعمر أبى وصاحب الفضل على من بعد ربي
التفتُ إلى أمى وقد وقف حسن بجوارها فعانقتهما معاً
وأعدتُ الكرة نفسها مع ملاك وشهد

أما خالتى فيحاء مع أخوتى والأستاذ محسن "عمى" لا
أعرف لم أجد صعوبةً فى أن أناديه عمى محسن كما وقف
عمى طريف مقابلاً له

فبارك لى جميعهم وأجبتهم بفرح
-بارك الله بعمركم وأدامكم لى سنداً وعونا

شهد

تخرجت رزان من كلية الطب بمعدلٍ ممتاز كما أن ملاك قد
تخرجت أيضاً بمعدلٍ أقل وتزوجت من يزن ابن عمتها
فدعنا لحضور حفل زفافها
فحضرنا الحفل وقد كان الجميع بسعادةٍ عارمة وهمس
حسن لرزان

-متى يصلنا الدور

-لا يا حسن ليس الآن حتى نحقق حلمنا أولاً ثم نتزوج
بعدها

فقال العم محسن

-لمَ يا حبيبتي لا يمانع إن تزوجتما الآن أن تفكرا بالمستقبل
وتسعوا لتحقيق الحلم
ما رأيك يا ياسر

-معك حق لا يمانع فالحياة مراحل ولا بأس في أن نقدم
واحدة على الأخرى إن لم تفسدها

فوافقناهما جميعاً

لتقول رزان

-إذاً يا حسن أنا رزان ياسر خلف أقبل الزواج منك وكلي
تواضع

فقلتُ لها أمازحها
-تقصدين " وكلك غرور "

ليضحك الجميع وتم الإتفاق على أن يكون الزواج بعد
أشهر..

وكان الدواء من حيث
كان الدواء

براءة

تستمر الأيام والذكريات وما زال حلمي بأن أكون جراحة
جميلة ومتميزة يراودني حيث أن الحرب وقفت أمام حلمي
وقد عرفتُ جيداً بأنه من المُحال، وقد كنت أسكن بحي
الفردوس إلى جانب صديقتي رزان
كما أن شغف كانت قريبةً منا بينما صديقتنا أمل فقد كانت
تسكن في شارع بعيدٍ عن أزقتنا مع العلم أنهم يكبرونني
سناً إلا أنهم اختاروني صديقاً لهم للأبد والصديقة الأقرب
هي رزان حيث أن منزلها مقابل منزلي لديّ أسرة لطيفة
متماسكة مكونة من أبٍ مدرّس وأم مربية رائعة من الدرجة
الأولى شقيقي الأكبر أحمد وهو الأحب إلى قلبي حيث كان
يدافع عني ويحميني ويرشدني حين أضيع بمताهات
المراهقة ولدي أختين صغيرتين فأقضي أغلب وقتي بين
أبي وأمي حيث حلما بأن أصبح طبيبة رائعة فأنا أجتهد
كثيراً ولكنه كان ما نعص عليّ حياتي فقد كنتُ معروفةً
بشخصيتي الضعيفة وطبّيتي الزائدة إلا أن صادقتُ الفتيات
الثلاث فهنّ لي، الصديقات والأخوات والحياة بمختصرها
وفي يوم الخميس حيث كان اليوم مميز واليلة جميلة لكنها
باردة قليلاً شعرتُ بوخزة مفاجئة في صدري فاستغربتُ
منها ووضعتُ يدي على مكان الوخزة لتنتله أُمي وتسالني

- ما بك! هل يؤلمك شيء؟

أجبتُ بالنفي حيث رفعت حاجبي ودخلت غرفتي كي أستريح
ولا تقلق أُمي

لم يكن أحمد بالمنزل ذهب إلى المشفى فهو ممرض يعالج
الجرحي أردتُ الذهاب إلى رزان ولكن الذهاب بهذا الوقت
وجدته مُحرجاً استلقيت على سريري وإذ..

صوت قذيفة صرخت لا شعوري أخي أحمد

ثم خرجتُ من غرفتي وسألتُ أهلي

- ماذا هناك ما الذي يحدث؟

أجاب والدي

- يبدو أنها قذيفة سقطت على السوق فجاءت أُمي تركض
وتصرخ بهلع: أين ولدي قلبي يغلي أخاف أن يصيبه شيء

فردّ والدي ما بك متشائمة إن أحمد بالمستشفى والقذيفة
بعيدة عن مَشْفَاهِم كما أنها ليست المرة الأولى التي تسقط
فيها قذيفة على السوق

صمتت أُمي بآلم وعادت إلى غرفتها كي تهدئ من روع
أخوتي الصغار

عماد

حين سمعتُ أصوات الصواريخ القادمة من طرف السوق
شعرتُ بالخوف على أولادي وطلابي ورفاقي وأكثر ما

أقلقتني خروج ابني أحمد من البيت وذهابه. للمشفى فأرى
أن الخطر يلاحقه منذ وقت وقد تعرض للموت مراتٍ عديدة
بحكم عمله كمُداوٍ في المشفى

براءة

حلّ الليل ولم يأتِ أحمد قالت أمي
-لقد تأخر كثيراً ألا تخرج يا عماد فتطمئن بالحال خارجاً
أجابها والدي
يبدو أن عمله كثير وربما دوره بالمناوبة ليلاً في المشفى
بالأمس كان صديقه مناوباً أنسيت!! !

-إن شاء الله سيكون بخير فلنطمئن

قلتها وقد شعرتُ بارتباكٍ داخلي لماذا تأخر أحمد أحقاً
حصل له شيء لا ما بك لا تكوني متشائمة لكنني خائفة
عليه فالوضع خطير

حديثٌ داخلي سار فتناولا عقلي الباطني والظاهري أطرافه
مرت في بالي صديقتي شغف عند توالي القذائف فخشيتُ
فراقها ولا أعرف لخوفي سبب ففسره داخلي باشتياقي لها
فلا داعي للقلق دخلتُ غرفتي ثانيةً لكي لا يشعر أحد
بارتباكي ف أمي مريضةٌ بالسكر ولا أريد إخافتها بأوهامي
التي أنهكتني

أطفأتُ النور وطويتُ ركبتي كما أرجعت ظهري إلى مسند
السريّر أنتظر. . . وقد أخذتُ غفوة لا شعورياً ففتحت

عيناى. . . . يبدو أن الصباح حل فزعت موجهةً نظري إلى
سريره لم يعد

أين هو بدأ الشعور المخيف داخلي يتدفق سمعت صوتَ
نحيبٍ في غرفة الجلوس خرجت راکضةً فإذا به أبى جالسٌ
على ركبتيه واضعٌ يديه على رأسه يجهش بالبكاء سألته
ما بك يا أبى قل ما الذى جرى؟

أشار بسبابته إلى التلفاز وفي عينيه دموع الصدمة التي
باغتته.

نظرت برعب لأجد اسم أخى بين الشهداء

مريم

بينما قضيتُ كل الليلة الماضية أترقب وصول أحمد سمعتُ
صوت عماد يتنهد ومن ثم بكى فسارعتُ إليه لتقع الصدمة
عماد وبراعة يبكيان والتلفاز مشغّل دنوتُ منه لأخفض من
صوته وأفهم الأمر لا بد من وقوع كارثة عظمى فوجدتُ
اسمه على الشاشة بالأحمر العريض حصيلة الشهداء ليوم
الخميس أحمد عماد الياسين -محمد ياسر خلف- دلال سهيل
إسماعيل-أمين الدالاتي وعشرات من الجرحى والشهداء
مجهولي الهوية.

صرختُ بكل ما منحني الله بقوةٍ في الحنجرة وتقطع قلبي
ليخرج أشلاءً مع صوتي وأنا أندب وأطم

- لا ولدي لم يمت لا بد من الخطأ لا ولدي أحمد لم يرحل

وبعدها شعرتُ بنسمةٍ باردةٍ تمر على جسدي فتعيد لي قوتي
وإيماني فقلتُ لله ما أخذُ ولله ما أعطى ورحتُ أحتضن براءة
التي انهارت كلياً بوفاة أخيها

براءة

قلتُ لأمي بصوتٍ مليء بالبكاء والألم لقد مات استندتُ إلى
الحائط فلم تعد قدماي تحملني وفاجأتني أُمي حيث بدأت
تردد أذكارها وتحمد الله وتسأله صبراً وسلونا واحتضنتني
فكادت يداها تصفغني لأفئق على الفاجعة المؤلمة مجدداً أما
إخوتي الصغار فراحوا يبكون لبكائنا ولم يدركوا سبب
نحيبنا.

وفي موجة الحرمان والألم جاءني صوتها يعلو بالبكاء
والولولة وعرفتها صديقتي رزان التي لا يُبكيها إلا خبر
الوفاة فهي أقوى من دموع الفتيات التي تنزل على أتفه
الأسباب، توجهتُ إلى مدخل مبنى بيتها لأسمع نحيباً من
أُمها وإخوتها فطرفتُ بابهم لتفتحه رزان بعينيها المليئة
بالدموع الحارة وأطلقت سهامها في صدري حين أخبرتني
بموت أخيها مع أخي بالمشفى

وأبكى منظرنا الباب الذي فُتح جانبنا حيث كان مشهدنا
مأساوياً للغاية ولم نشعر ببشاعة الموقف حينها فالمكان
مليء بالألم والدموع وكان هناك أيضاً صوت بكاء حار
خارج من أحد المنازل

عماد

خرجتُ بجنّازة ابني كما ودعتُ رُوحِي بفراقه لم أشعر يوماً
قط أنني سأفقدّه عندما حملنا النعشَ مرتَ ببالي ذكرياتي
معه وتذكرت طفولتي التي منحني إياها بطفولته فساعدتهم
ورفعتُ التابوتَ وكأنني أحملُ له حقيبةَ مدرسته التي تتعب
ظهره الصغير وأنا أودعه تخيلتُ نفسي أوصيه بألا ينسى
قطع الشوكولاتة في الحقيبة والوجبة التي أحضرتها أمه
مخصصةً لصباح ابنها فأنهاه عن إهمالها وأخشى أن تبيت
أكلاته ويبيتَ جائعاً.

وكان أبو محمد جاري وصاحبي بالطرف الثاني يحمل ابنه
في تابوتٍ مماثل ولكنني في تلك اللحظة لم ألاحظه وما كان
بالإمكان أن أواسيه وقد فقدتُ الأمل الذي سأحدثه عنه

براءة

أما أمي فقد كانت صابرةً محتسبةً إلا أنها في صدمةٍ لا
تدري أهي موجودةٌ فعلاً أم لا!!!..

دخلتُ غرفتي فأقفلت الباب و نظرتُ حولي حيث لم أشعر
بضيقٍ كهذا من قبل وكان رُوحِي تشهق داخلي وتصرخ
أريدُ التّنفّس اتجهتُ نحو خزانة الملابس بخطواتٍ ثقيلة
لأجد قميص أحمد معلق أخذته فاستنشقتُ ريحان أخي
وعبيره وأنا أبكي

آآآآآه يا الله إِلَيْكَ الْمُشْتَكَى لَقَدْ رَحَلَ أَخِي وَاصْبِر آآآه
....واقلباآه. وشقيقاآه لم أكن أعرف كمية ألمي وجرحي
الذي لن يلتئم.

جلستُ على السرير واضعةً يدي اليمنى فوق قلبي وأنا
أجهش ببكاء الدمع الذي خنقتي قبل أن يخرج من مقلتي
أنظر إلى الساعة وكأنها هي الأخرى توقفت لا تمشي
فالوقت لا يمضي مازالت متسمةً على الحادية عشر
والنصف سمعتُ نداءً في الغرفة المجاورة إنه صوت
أحمد!!

لقد عاد ركضتُ متلهفةً إلى الغرفة فتحت الباب بوحشية
ليسود الصمت داخل الغرفة فعدتُ إلى غرفتي حاملةً قميصه
بيدي هويتُ بجسدي على السرير وبدأتُ ببكائي من جديد
ما أصعب النوم بعد فقدان ومن فقدت !!
فقدتُ أقرب الناس لي

أخذتُ عيناى تغلق بعضها البعض من أثر التعب والألم
أيقظني المؤذن بنداؤه لصلاة الفجر فتوضأت وبدأتُ
بالصلاة .

أخذتُ القرآن ورحتُ أرتل آياته ريثما يصل أحمد فهو يأتي
عادةً في مثل هذا الوقت سأنتظره لكي أفتح الباب له حتى لا
نزعج أبي بصوتنا فقد أنهكه الوقوف طوال النهار أمام
الطلاب رافعاً يده إلى السبورة ويكتب فيشرح ويمسحها
ليعيد الكرة نفسها ولا داعي لإيقاظه في وقتٍ متأخر

جلستُ على السرير وفتحتُ القرآن وإذ به القميص بجانبِي
مبللاً بدمعاتي الأخيرة

نظرتُ إليه ما الذي يفعله هذا هنا ساد الصمتُ غرفتِي مرةً
أخرى

إنه قميصُ أحمد مابك أنسيتي أنه دُفن قبيل ساعات
هكذا كانت معاتبةٌ عقلي الباطني فقلبي يأبى أن يصدق بأنه
فارق الغالي

مريم

بعد أن أنزلوا أحمد في قبره وألقوا عليه تراباً بارداً
اجتاحني الألم من كلِّ جانبٍ إلا أنني آثرتُ الصبر والإيمان
وحاولتُ أن أدعم عماد الذي كان يكابدُ حزنه ويكابُر فلا
يُظهر أماننا إلا القوة وفي داخله ضعفٌ ينزف ويوجع أما
براءة فقد كان الأسى بياناً وعنواناً لحالتها حيث فارقتُ
رفيق دربها وقدوتها

كما أن أولادي هم ما بقي لي من الحياة فأخشى عليهم من
الهم والتعب

براءة

مرت أيامٌ عصيبةٌ وجاء العيد فذهبتُ مع أمي لنزور أحمد
في قبره

لم يكن عيداً على أي حال بل كان يوماً جديداً كغيره إلا أنه تجاوز الروتين بعد شهر رمضان المبارك الذي كان إفطاره ذكرى ودمعات وسحوره ندبات .

أخذتُ الماءَ ومعها شتلة وردٍ رأيتها ذابلة ربما صرتُ أرى كل شيء هكذا

ما إن وصلنا المقبرة حتى وجدنا العشرات لا بل المئات من الأمهات والزوجات والأيتام والثكالي إنه عيد المسلمين جميعاً إلا أن الدنيا ضاقت بهم على رحبها فقدموا أولادهم الشهداء عطاءً وتضحيةً منهم ولكل منهم فقيدة اتجهنا إلى قبر أخي وحين وصلتُ تناولتُ قبضةً من التراب الذي يغطيه وبدأت بالبكاء أنا وأمي ورددنا الدعاء له على ألسنتنا أما أبي فقد مثل دور الصامد الذي لا تكسره الأزمات ولكن هذا لم يستمر طويلاً فقد ابتعد عنا لكي لا نراه وبكى أول ولاده وذكرياته وأحلامه

بكى كما لم يبكي من قبل

ورحلتُ أثقب في التراب ثقباً عدة حتى صارت حفراً صغيرة وزرعت شتلة الورد فيها فسقيتها وقد زاد الماء في جعبتي.

تلفتُ حولي ورأيت الكل يبكي كانت لوحةً لدماءٍ جفت في العروق ودموعٍ أسرتها المقل .

وحدقتُ بامرأةٍ خلفي وقد زاد تركيزي على حركاتها فراقبتها وهي توزع أنظارها على قبورها الثلاث

وقد بلغت من العمر ستين عاماً

فاستأذنتها تلك المرأة الستينية التي أثارت فضولي ترى أي
هذه القبور لفقيدها !!!

ولم لا تقبل التراب كما تفعل باقي النساء المجاورة
ورحت أحادثها ولكنني أجهل بداية الحديث ماذا أقول
أبإمكانني أن أعزيها بفقيدها أو أواسيها أم أسألها عن سبب
وجودها هنا لا لا ما هذا الخيال المحدود
فأخذت من الماء حجتي لأكلّمها
-مرحباً يا خالة

-أهلاً ابنتي

-أتقبلين مني أن أهدي فقيدكِ رحمه الله هذا القدر من الماء
فأسقيه حتى يذهب الظمّ عنه
-الشهيد لا يظمأ يا حبيبتي فقد كرّمه الله حياً وميتاً كما أنهم
ثلاثة لا واحداً

اتسعت فتحة عيناى وهي تقول ثلاثة فأكملت

- إنهم أولادي الثلاثة "مجد- أحمد وبلال " استشهدوا
فتركوني وحيدة أنتظر إذن الله باللاحاق بهم فقد تآقت
نفسي للقائهم ولكنني أحيا بأمرٍ من ربي لأجلهم كي
أدعو لهم بالرحمة والمغفرة

نظرت إليها نظرة كلها حزن وإشفاق فهي وحيدة كما أن
الذي مر بها أعظم من مصيبتنا وأكثر قسوة ومرارا
فأخبرتها بما حدثتني نفسي وأنا أرشف الماء بأصابعي
المتأثرة بالحال على قبور أولادها

- أسأل الله أن يقوي الإيمان بقلوبنا ويصبرنا على بلائنا
فأراك يا خالتي قوية صلبة رغم مصيبتك وأتمنى أن يجعل
الله لك نصيباً من السعادة في هذه الحياة ويدخلك وأولادك
جنة عرضها السموات والأرض التي أعدها سبحانه
للصابرين القانتين

-حفظك الله يا ابنتي أبني من الآن بيتاً في الجنة بإذن الله
كما أنني لا أسعد ببيت خالي فأرسلت أولادي إليه ولولا
رحمة الله وعفوه لكان حالي غير الذي ترين
-ودعتي أم الشهداء الثلاث بابتسامة بئسة فيها موت
وحياة

أمل وألم كل المتناقضات وجدتها بابتسامتها الأخيرة
وعدت لأمي أقول

-انهضي يا أماه هذا يكفي رحم الله أخي فلنعود بأسرع وقتٍ
إلى المنزل ها هو الطيران يحلق فوقنا ولا بد أنه ينوي
الشر فلنسرع لنطمئن على أخوتي فعدنا وأبي للبيت من
فورنا

أحسست أن مقابلة أم الشهداء الثلاثة أشبه بمعاناة من الله
على حزني المفرط لفراق أخي وقد بالغت بردة فعلي
والحمد لله على كل حال ، عدنا إلى المنزل

حيث يسود الظلام ولا وجود للكهرباء في حيننا كما أنهم
قطعوا الاتصالات فما كان بالمستطاع وصول أي خبر من
صديقاتي حتى رزان التي كانت قرب البيت وقرب القلب
خرجت مع عائلتها بعد فقدانها أخيها وقد ازداد القصف

بالصواريخ والبراميل على الحي في المرات الأخيرة التي
أودت بحياة الكثيرين

واستمرت الطائرات بالقصف واقترب أكثر فأكثر صوت
دوي الانفجارات.

أخذت أخوتي وجلسنا في الغرفة الداخلية من منزلنا
تحسّناً لأي أمر طارئ أما والداي فقد انشغلا بقراءة
القرآن والأدعية

استمر القصف العنيف لمدة يومين متتابعين واقترب منا
كثيراً فأصبح الحي كمدينة الأشباح إذ لم يبقَ به أحدٌ سوانا
ومعنا ثلاث أو أربع عائلات نحن الذين لم نستطع الهروب
قبل الحصار الذي فرض علينا

اختفت أصوات الانفجارات في اليوم الثالث عشر على
التوالي خرج أبي لكي يستكشف الأخبار علّه أيضاً يقدر
على تأمين بعض الخبز فأخوتي الصغار يتضورون جوعاً
ولم يبقَ في المنزل شيء يؤكل

مريم

خرج عماد ليأتينا بطعامٍ يغيثنا فقد قرقت المعدات واصفرت
الوجوه - لا تتأخر بالعودة حتى وإن لم تجد الأكل فهذا أحسن
من أن ينشغل بالننا عليك

كانت هذه وصيتي قبل خروجه بالباب ففي الفترة الأخيرة
صرتُ أخشى عليهم من الهواء

مرت ساعاتٌ ثلاثة ولم يرجع عماد فراح القلق يتخللني
وأخذ الصبية يبكون فقد ثقل عليهم تحمل الجوع أخذتهم
شقيقتهم براءة وبدأت تروي لهم القصص التي أخبرها إياها
أخوها أحمد بطفولتها حتى يتعدى الوقت لقد تأخر كثيراً
أُيعقل أن يحدث له شيء!! اصمت أيها المتشائم

لا تكثرني فهو كثيراً ما يثرثر
نهر قلبي عقلي العجول وطمأنني
ماكنت أريد أن أقلق براءة لكنني فعلتها بعفويةٍ وحماسة
حين سألتها

- قد تأخر والدك كثيراً وأخشى...تأخر أليس كذلك!!!
-بلى قد تأخر قليلاً لكنه يبحث عن خبزٍ أو أي شيء نأكله
وأؤكد لك يا أماه أنه لن يأتي بدونه
-يأتي الآن إن شاء الله

براءة

أوشكت الشمس على الغروب وما زال أبي خارجاً ذهبت
لارتداء معطفي بهدوء وأنا أمشي على أطراف أصابعي لكي
لا أثير انتباه أمي التي نامت لتوها
و ما إن توجهتُ إلى الباب لأحرك يده للأسفل حتى بدأ القفل
بالتحرك بغير تحريك شعرتُ بالأمان وكأن جبلاً وُضعت
على عاتقي ثم أزيلتُ

-أين كنت؟ لقد تأخرت كثيراً

نظر إليّ بابتسامة

-كثيراً!!

أيعقل أن أترك زوجي وأولادي جوعاً وأعرض نفسي
للخطر فأعود ملوّحاً بـكلتا يديّ وأصفق بهما فأخبركما
بأنني لم أجد شيئاً يسد جوعنا

خذي هذا الخبز بلّيه بالماء لنأكله فلم أجد غيره

-هذا أبي الشجاع الذي حدّثتُ أمي عنه قبل قليل حماك الله
لنا يا سنداً يحمل أعباءنا ولا يابه بثقلها و زيادة وزنها

ضحك أبي فاستيقظت أمي على صوتنا

بينما أخذتُ الخبز أحضر الطعام فيه

كان حوار أمي وأبي

- أبا أحمد لقد قلقتُ عليك يا رجل ألا تخاف أن نُصاب

بالمرض

أجابها ضاحكاً

-لا تخافي إنني هنا أما زلتِ تحبين وجودي معكِ وتخافين

عليّ

كما أنني أخاف عليك من حبكِ لي وحبّي لك أخاف عليك من
أمومتكِ المفرطة وأنانيتي الذكورية أخاف عليك مما
ستتحملينه في السنوات القادمة

-لا داعي لمخاوفك هذه فما سيمرّ سنتحمله معاً إن شاء الله

وسينقضي كما انقضى الكثير

-إن شاء الله الطعام يا مريم براءة ابنة بارة وطباخة ماهرة
ضحكنا جميعاً لمزاح أبي فالخبز المبلل الذي يعتبره الآن
طبخاً مميزاً كان يغضب حين لا يجد غيره في السابق
وقال أبي بعد أن دلفنا للغرفة الداخلية حيث مكثوا أخوتي
الصغار

هياً تناولوا غداءكم بسرعة وتجهّزوا للخروج فتقول العامة
بأن هذا الهدوء ناتج من هدنةٍ فرضوها ليجهّزوا عدّتهم
وقوتهم بالجيش والأسلحة
سنخرج جميعنا غداً.

بدأت وأمي بتحضير الأغراض اللازمة وأخذ والدي يجمع
الأوراق المهمة كانت هناك فرحةٌ باهتة بعض الشيء من
جانب سينتهي فلم الرعب الذي نعيشه كل يوم ومن جانب
الآخر سنترك بيتنا وأهلنا وغرفتي الجميلة وأيضاً أحمد....

عماد: حين خرجتُ قاصداً سبيلاً للفرج سمعتُ أصوات
الأجهزة اللاسلكية حيث بثّت أخباراً تُخيف حقاً وقد كانت
مقنعة بالفعل فما كانت هدنتهم هذه إلا ليستعيدوا قوتهم
ويعاودوا الهجوم مجدداً بقوةٍ وجيوشٍ وأسلحة مضاعفة
ما أقبح تفكيرهم حين يتبعون سياسة الأرض المحروقة التي
عرفوا أنهم لن ينالوا منها وهي خاوية ففضلوا احتلالها
جدباء على أن تبقى خضراء لأهلها

براءة

جاء الصباح فخرج أبي يحمل الحقائب وساعدته بإنزالها
كما أن أمي أخذت وعد وسلام الصغيرتين
حيث استقلينا إحدى الحافلات الخضراء لون السلام سعدنا
أنا وإخوتي ووالدينا فجلست بجانب النافذة لأودع بيتي
غرفتي وأحمد حيننا طفولتي وأصدقائي حيث هناك الماضي
ولا أدر إن كان المستقبل أيضاً

بينما نحن بالطريق وإذ به الحاجز الأمني يستوقفنا للتفتيش
حيث قاموا بإنزال جميع الركاب وبدأوا بتفتيش الرجال حيث
سحبوا هوياتهم وراحت الأطفال تبكي خوفاً من مناظرهم
فهم مدججين بالسلاح أخبرهم أبي بأننا خرجنا من الحصار
ونريد المرور من هنا بسلام فضحك القائد بخبت وأكمل
قائلاً

- ستمرون ولكنكم ما رأيتم من بعض ما عندنا ألا نضيفكم!
سكت أبي وقد شعر بالقلق

وراحت عناصرهم تعزل الرجال عن الأطفال والنساء وأمرنا
قائدهم بصعود الحافلة وتبقى رجالنا معهم حاولنا أن
نصدهم ونقف في مواجهتهم وظننا أنهم حين يرون تماسكنا
واتحاد كلمتنا ستنشر المخاوف في قلوبهم

ورفضنا الخنوع بكل ما نملك من قوة فلم نقبل أن نترك
رجالنا أو نموت دونهم فضحكوا كلهم بسذاجة وأخذوا

يُلْقِمُونَ الأسلحة بالصعود فأبينّا مرةً أخرى ولكن بعد صراخ
أبي ومَن معه سعدنا والبكاء يقيم حفلاً في عيوننا

عماد

أنزلونا من الحافلة وعزلونا بمفردنا كرجال فبدأوا بركلنا
واحداً تلو الآخر ما إن وصلوا إليّ وقد تمنيتُ لو أن السائق
يكمل طريقه فلا تراني أسرتي بهذا الضعف

لكنها ثمة أمنية لم تتحقق لا بأس سأضيفها لأرشيف
أمنيّاتي التي خابت

وراح قائدهم يضرب كل مكان في جسدي.

. رأسي بطني ظهري كل ناحية من جسمي نالها نصيبٌ من
لؤمه

صرخت براءة قائلةً

- اتركوه أيها الأندال اتركوه فأنتم لا تخافون الله وبدأت
تجهش بالبكاء قيدوا أيدينا وألبسونا قمصاننا في
رؤوسنا

فنزلت مسرعةً

- لا انتظروا أرجوكم هذا أبي ليس لنا سواه

-فرد عليها بتلاعبٍ وكذب ألا تريدون الأمان فكيف نترك
المجرمين هنا وهناك، ما نفعل هذا إلا لحفظ سلامتكم
وسلامة البلد

-لكنكم أنتم مَن تفسدون هذا البلد وتدعون إصلاحه دون أن يطلب أهله هذا منكم بالله عليكم مَن هؤلاء أتعرفهم؟

أنا سأخبرك

هذا أبي مدرّس اللغة العربية في مدرسة يوسف العظمة وقد كافح وناضل إلا أن صار عنصراً فعّالاً بمجتمعه يفيد بلده ونفسه

وهذا طلال طبيب جراح مشهور درس على ضوء الشموع فأذاب أثناء دراسته آلاف وملايين الشموع وذلك لفقر حاله واليوم هو طبيب ماهر يكافح ويناضل حتى يعيش حياة كريمة وينفع شعب وطنه

والذي على يمينك أيها القائد فهو مزارع نشيط اعتاد منذ الصغر على الاستيقاظ باكراً ليعمل في الأراضى فيزرعها لتثمر ويحصد ما زرعه فيعيش وترتقي فيه البلد اقتصادياً وزراعياً

أود أن أكمل لك البقية لكن الوقت لم يكن لصالحنا أخبرني مَن أنت وما الذي فعله هنا

-اخرسي

-لا تشتت يا أستاذ

-سيدي""

-لم تكن سيدي

سمعتُ صوتها وقد ركلها بحذاءه الضخم وشعرتُ بأحد أضلاعي ينكسر لا بل كلها تمزقت لصوتها

تمنيتُ لو أتمكّن من إراحة القميص المغطّي لعينيّ الذي
يحجبهما عن رؤية المشهد كاملاً فكم أحببتُ قوة براءة التي
عرفتها صغيرة رقيقة لا تملك صلابة ولا قسوة

وحين سمعتُ أننيها تمنيتُ لو أنها ترى ملامحي فترجع
لأمها وإخوتها وتدعني لمصيري

وحين عرفتُ أن كلا الأمنيتين السابقتين لن تتحقق تمنيتُ
لو أن الأرض تنشق فتبتلعني ولا تعيدني أبداً

كما تمنيت لو أنني لم أتزوج وبالتالي كان الحمل أخف
والمسؤولية أسهل لا حزن على أحمد فإن وقعت الأمنية فلا
وجود لأحمد بالأصل ولا ألم على حال براءة وإخوتها ولا
خوف على الحب الذي أراه ينحدر أمامي من تحت الظلمة
التي أضفاها القميص ولكن ما بالي أكثر بالأمنيات
وما نيل المطالب بالتمني تؤخذ الدنيا غلابا

براءة

تذكرتُ المرأة الستينية والدة الشهداء الثلاث وقوتها وكأني
قد شُحنت قوةً بمرورها في ذاكرتي فواجهته بحقيقةٍ يخشى
أن يواجهها أمام مرآته إن كان له قلبٌ ليخشى فيه وإن كان
ينظر في المرأة أيضاً فشكله ينم على شخصيةٍ تثير
الاشمئزاز وما كان منه إلا أن يسكتني بالعنف فركلني بقدمه
ذلك الطويل ذو الندبة على وجهه التي لاحظتها من أول
لحظةٍ جمعتنا فتشأمتُ من منظره البشع وكان ظني بمكانه
فقد كان شنيعاً من الداخل كما كان ظاهرياً

وقال لي اغربي عن وجهي أيتها اللعينة
ما كان مضطراً لشتمي فقد فعلت ضربته بي أكثر مما كانت
ستفعله الكلمات حيث طرحتنني أرضاً وشعرتُ بالدنيا تدور
من حولي ورأيتهم أشباحاً فأرهبني المنظر
وحينها ركضت أُمي وساعدتني لأنهض مجدداً وأقف لأقول
بوجهه

- لن تستطيع فعل غيرها أليس كذلك أيها الشهم

- آخر مرة اصعدي الحافلة أو فلتموتي

فرقت لهجتي وأنا أقول

- وأبي أين تأخذوه ما الذي فعله رجالنا لتأخذوهم به

- ألا تعرفين ما فعلوا فقد عرفتهم جيداً وتعلمين ما الذي
جنوه

- هؤلاء أشرف وأطهر منك أيها السيد القدر

حاوطني جميعاً بأسلحتهم إلا مَنْ وقفوا مع الرجال
ليحرسوهم إذ لا مجال لهروبهم

تقدمت أُمي وتوسّلت لذاك الوحش الغاشم ليدعني فقال
بصوتٍ فظيع الخشونة خذوها فوراً قبل أن

وسكت لتسحبني أُمي غصباً وتصعدني ثانيةً للباص حيث
ألحّت على السائق مراراً وتكراراً أن ينتظر عودتي ويخاف
أن ينزلوه معي ما أضعف قلبه .

مريم

من لحظة إنزالنا جميعاً من الحافلة اجتاحني خوف رهيب
فأشكالهم تشي بالتجبر والظلم لا رحمة في قلوبهم
واستغرقت في التسبيح والأدعية اللهم خذهم من بلادنا أخذاً
عزيراً مقتدرأ وحرر أرضنا الطاهرة من دنسهم اللهم إني
أسألك الرحمة لولدي ولكل الشباب الذين استشهدوا فداءً
لهذا الوطن

وحين بدأت براءة تحادث أميرهم، قائدهم، سيدهم
كما سموه أو سمى نفسه بنفسه

شعرت بالقلق وحديث داخلي متعب دار بين عقلي وقلبي
-كيف لهم أن يدعونا وأمرنا بعد كلامها هذا كم أنها
متسرة

-ولكن ما تقوله صحيح

- صحيح بغير موضعه

- هذه التي كانت تبكي من تنمر أولاد المدرسة اشتد عودها
الآن لتقف أمام هذا الظالم، كم أنها قوية وذكية

-لو أنها ما فعلت لتركوا عماد من فورهم

-لكنهم حتى الآن لم يتركوا أحداً من باقي الرجال رغم أن
أهلهم صامتين لا حركةٍ منهم ولا كلمة.

-لو أنها صبرت وكظمت غيظها لكان التعامل مع أبيها
كغيره لكنني متأكد أنهم الآن سيميزونه عن غيره بالتعذيب
وذلك كي تتفوه ابنته المتسرعة بكلمات لا جدوى منها
-لكن ما قالتها سيصف العرب جميعاً لم نسكت عن حقنا رغم
قوتهم وإن علوا بالسلاح نرتقي بالفكر

هذا كله وقلبي يلتهب

تَراهمُ بِمَ يَخططونَ حتّى أخذوا الرجالَ وما الذي سيفعلونه
بهم

ولكن عندما بدأ الحوار يأخذ مجرى آخر وصارت براءة
تتحداهم فضربها الغبي اللئيم أسرع من فوري وصحبته
لللباس يكفيني فراق أحمد والآن عماد الذي لا أعرف له
مصير مع أولئك الفجرة

وبعد أن دخلنا الحافلة وجلسنا على أرضها حيث لم يبقَ لنا
مكاناً وقد نامت الأطفال كما أن العجائز راحت تستلقي من
تعب الأمراض والآلام التي تشتدّ عند الخوف والحزن
سمعتُ قائدهم ينادي خذوهم إلى السجن أصابتنى كلماته
بالألم والأمل

- فربما بسجنهم يبقى سنين طوال يعاني التعذيب والذل
- لا يمكنهم إذلاله بسلاحهم فشلوا مع ابنته فكيف لهم أن
ينجحوا معه

- قتلهم الله ولكن السجن الطويل يوهن العظام والمفاصل
يوهن العقل والقلب ما الذي سيخرج معه

-تفألي ما بك وربما يحين الفرج قبل ذلك ربما يلحق بنا
الآن

لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً

المهم الآن أنه حي لم يمت

انتهى الحوار الذي جرى داخلي في لحظاتي الأخيرة كنتُ
أتحدث داخلياً هناك في أعماقي أكثر من كلامي مع مَنْ
حولي

فمسحتُ دمعاتي التي جرت وتعذر عليّ مسح الأخريات
الداخلية التي كانت مألحة على فؤادي الذي جرح لا لم
يُجرح بل وكُسِر وتحطم سأضم أشلاءه وأحمي ما تبقى منه
لأولادي وما بقي من حياتي

براءة

لم يبقَ لنا أي أحد فقد ذهب أحمد وها هو أبي اعتقلوه لا
نعرف عنه شيئاً حتى يشاء الله

ولا يمكننا أن نفعل شيئاً مهما كان بسيطاً بكت أُمي بحرقة
وهي تقول

- لو كنتُ أعلم أن هذا مصيرنا لرفضت الخروج وبقينا في
منزلنا ننتظر موتنا أقل ما يمكن أننا سندفن سوية وهذا لا
بأس به أفضل من حالنا هذا

-هوني عليكِ يا أماه حكم الله فينا فلا نعترض عليه

وضعت يدها على رأسها وقالت إلهي قد تعبت فخذ روحي
التي طال تعذيبها
نظرت إليها معاتبَةً

-وكلّي الله يا أمي فهو لن ينسانا ولكن ما هذا أتتركيني
وحدي! أجابتنى بنوبة بكاء هستيرية وكأنها تقول لا لن
أستطيع يا بنتي

ساد الصمت داخلي لا أعرف ما الذي أفعله أو إلى أين نحن
ذاهبين وكيف سنعيش وحدنا ، هكذا كنت مشتتة الهواء
يخنقني والماء يزيد من ظمئي ولا أعرف ماذا أفعل. . .

مرت ساعات وكأنها سنين ما أثقل

تلك الأيام

وما أقسى ظروفنا التي تلطمنا حيث نتوجه

أسندتُ رأسي على النافذة وصرتُ أبكي بصمتٍ ٍ والحزن
يسود الركاب فجميع من هنا كان له معتقل مجهول المصير

كان المشهد مأساوياً جداً، الوضع سيء والظلام يعمّ
الأرجاء فالجميع يبكي بصمت يا ويلتي لا أعرف ما الذي
أفعله لكنه توجب عليّ التظاهر بالصبر والقوة فأمي
وإخوتي بحاجة مساندة ولا يمكن لأحد أن يقدمها لهم بعد
الآن سواي مسحّت دموعي وسألت السائق متى وإلى أين
نحن سنصل

بنبرة حادة التفت جميعهم إليّ بما فيهم السائق باستغراب
وبقوا شاردين نظرت بقوة مصطنعة قائلةً

- ما بكم هل سنبقى نبكي إلى الأبد أو نستمر بالحزن
أعوام .

هذه الحرب وستمر على الجميع وسنحارب أيامنا كما
تحاربنا فالحرب من طرف واحد قاسية والدنيا ستستمر ولن
تقف على أحد سنعيش من أجل أولادنا وأمهاتنا وإخواننا
وسنحارب من أجل غدٍ أفضل هؤلاء الذين سُحبوا من بيننا
سنعيش لأجلهم ولأجل عودتهم لنا سالمين
حمد كل من في الحافلة ربه واستغفره

قال السائق هذه هي فتيات سوريا هذا ما سمعناه عنكم ثم
أكمل قائلاً ساعات معدودة أقل من تلك التي مضت وسنصل
إلى مناطق الحدود السوريّة

أمسكت أُمي يدي ونظرت إليّ بعينيها اللامعتين المنتفختين
من شدة البكاء وقالت

- على الرغم من كل ما مر علينا من ألم والذي سيمر إلا
أننا سنحارب بصمود وستبقى ابنتي التي لن تخيب أُملي
مهما عصفت بنا الأيام

-نعم سنبقى أقوياء ومر بشريط ذكرياتي تلك القدوة التي
مررتُ بها مسبقاً والدّة الشهداء صاحبة الإرادة والصبر
توقفت الحافلة ها قد وصلنا الحدود السورية الآمنة.

أخبرنا السائق بعد أن أوصلنا أن نذهب إلى مكتب إدارة
المخيم لكي يعطونا خيمنا ونستقر

ذهبتُ مع أمي وإخوتي إليهم فأعطانا المدير خيمتنا لقد
كانت من رقتها لا تحجب عنا حرّ الشمس ولهيبها لكنها تفي
بالغرض نوعاً ما نصبتها بمساعدة أمي وأشخاصٍ هناك
فوضعنا أغراضنا فيها ثم أدخلنا وعد وسلام لتهدأ حالتهم
على ما يبدو قد أصابتهم حمى شديدة
وذهبتُ للمنشأة الإدارية لأطلب

الخبز أو أي شيءٍ آخر يوكل فنظر إليّ نظرةً استفرتني
حيث رفع حاجبيه بعد أن تحدثت كثيراً وشرحتُ له وضعنا
- ماذا تريدان أيتها الجميلة

-كان وضعاً دنيء النفس ومع ذلك استخف بي واستهزأ
بطلبي

فرجعتُ خطوتين وأعدت

-أقول إن كان هناك خبزاً أو أكل

-لم يكن هنا يا أميرتي بيت مالٍ للمحتاجين الذين يتكففون
الناس بأيديهم ولا جدوى من هذا فلا تعود لي لمثله
ستأتي إليكم المساعدات مرة واحدة كل شهرين فتعيشون
بها

-ما أتيتك لأتسول ،سبحان اللهكيف تتغير الناس لا أراك منا
بقدر ما وجدتكم منهم تتشفى بأبناء بلدك يا لها من رجولة
- رجولة لا تعجبك إذاً أيتها الفاتنة

-لم آتي أصلاً كي أعجب بها أو أدبر عنها
خرجت وقد تمزق داخلي لا بل هو ممزق من قبل ثم سمعت
نداءً بصوتٍ ندي

-من هنا يا ابنتي؟

التفت خلفي وإذا به سبعيني العمر اقترب مني وهو يحمل
الخبز وفي يده الأخرى صحن من حبات الزيتون وآخر فيه
لبن
-أنا!

-نعم أنتِ حديثي الوصول أليس كذلك!

-نعم يا عماه للتو وصلنا

أكمل قائلاً لا بد أنكم خرجتم من الحصار ولا يوجد لديكم
شيء لتأكلوه خذي هذه وأطعمي أهلك لقد كانت عيناى
ملينة بالدموع وأجهشتُ بالبكاء دون أدنى إرادة حيث فقدت
سيطرتي على دموعي

- لا يا بنيتي لم أقصد هذا أنا فقط. قاطعته بقولي: ليتنا
بقينا بالحصار ولم نقدم إلى هنا فالغربة والتشرد ليست أقل
وجعاً من القصف ربّت على كتفي وقال

- مررنا جميعاً بالصعاب التي تودي بالرجال ولكن الأهم من
هذا أننا تجاوزناها ومن قدر على أن ينجو من القصف
والخطر أجدر به أن يتخطى هذه الأيام التي قد تبدو قاسية
إلى حدٍّ ما لكنها ستمضي هيا خذي هذه من يدي واذهبي
لخيمتك فقد حل الظلام

أخذتها وكم تمنيتُ أن أشكره عليها وعلى كلماته لكنني لم
أستطع فشعوري بالاختناق كان يطاردني وأظنها محطتي
الآخيرة

وذهبت على عجلةٍ من أمري نحو الخيمة قبل أن أدخل
استجمعت قواي النفسية أبي، صديقاتي، حلمي، أحمد كل
تلك الحثيات جررتها لذهني كي أستعيد الأمل بداخلي
ودخلت خيمتنا استقبلني كل من وعد وسلام بابتسامةٍ
يشوبها الألم فقد جاعت معداتهم بما فيه الكفاية
قالت وعد بعد أن رأت ما بيدي

- تعيش قائدتنا براءة لقد أتتنا بطلتنا بالطعام فلنأكل هنيئاً
مريئاً من يديها

وضعته وبدأتُ بإطعامهم

- أمي لم لا تأتين للأكل

- لا أشتهيه

- تعالي يا أماه فحبات الزيتون هذه أطيب من تلك التي
تنضجينا في المنزل

قالتها وعد بتهكمٍ وضحك

فابتسمت أمي قائلةً أيتها الماكرة ثم نظرت إليّ لأرى
الدموع في عينيها حيث أخفتها بإصرارٍ إلا أنها رفضت
المكوث والأسر لتطلق حرةً وتجري على خديها فأشاحت
بوجهها حتى شبع الأطفال

ذهبتُ إليها

-لا بأس عليك يا أمي اصبري قليلاً ولن يحصل إلا الخير
-لكنني سئمت الانتظار

-أي انتظارٍ هذا وأين نحن من أولئك الصابرين
وذكرتُ لها قصة أم الشهداء الثلاث وقوتها على الصبر
-أعرف يا حبيبتي أسأل الله أن يقوي الإيمان في قلوبنا
ويربط عليها

-يقول عمر المختار ذاك العملاق التاريخي
الضربة التي لا تقسم ظهرك تقويه
فلنجعل هذه الأيام لنا لا علينا

-سنفعل عندئذٍ نلقى أباك الحبيب ينتظرنا بفخرٍ لنجتمع به
وتكون لنا عيشة أفضل من ذي قبل
-تماماً، هذه أمي التي أعرفها حيث علمتني الصبر
ومجاهدة النفس

عانقتها بحسرة ويأس لكنني منحتها جرعةً غريبة من
التفاؤل والأمل

كيف يقولون فاقد الشيء لا يعطيه

في الحقيقة أنا أو من بصحة هذه المعلومة ولكنني لا أعرف
إن كنتُ قد أعطيتها أملاً من نفسي ولم أتأكد من عدم
وجوده أم أنها تمثل دور المتفائلة كي تهوّن عليّ الأمر
بعد أن نامت وعد وسلام حاولتُ النوم فلم أحظَ به لأراها
يقظةً لم تتم بعد

-هل أنتِ جائعة يا أمي هناك بعض اللبن إن أردتِ

-لا ولكن النوم حاربني كما فعلتُ بنا الأيام

-أمي أهنأك حرج لو طلبتُ منك قصةً تسردينها لي حتى
أنام فأنا أيضاً تاه النوم في طريقه إليّ

-لا يا حبيبتي

يُحكى أنّ فتاة في الرابعة عشرة من عمرها حلمتُ أن تلمس
القمر فسخر منها كل من حولها على هذه التخاريف
والأوهام التي تراودها

أما والدتها التي كانت بيت سرها ووالدها ذاك الشهم النبيل
فلم يكسرا قلبها كما فعل الكثير وشجعاهما لتحقيق ما
استهزؤوا به وظنوه مستحيلاً زرعا الإرادة داخلها كما
يزرع الفلاح بذوره وكان لها أخوة صغار لا يعرفون من
الحياة إلا القليل كما أن صديقاتها اللواتي منحنها الحب على
طبق من ذهب ابتعدن عنها فباتت وحيدة في الظلام تبحث
عن طريق يأخذها للقمر كمن يبحث عن إبرة في أكوام من
القش

بينما كانت تحكي أمي كنتُ أنا مغمضة العينين أتخيل أمامي
الصعوبات التي تواجهها وساعدني في ذلك تباطؤ كلمات
أمي حتى قُطعت

-أمي أكملّي فمازلتُ أسمعك وتأخذني المتعة لأتخيّل الفتاة
الحالمة.

أمي نمتِ كعادتك؟

لا بأس جلستُ أراقب النجوم في السماء وركزتُ نظري على
نجمي المفضل كما كنت أفعل بين صديقتي حيث اختارت كل
واحدةٍ منا نجمها المفضل الذي سيشهد محاولاتها ويخوض
معها التجارب حتى الوصول وتذكرتُ أبي فدعوت الله أن
يفرج عنه كربته ويحلّ القيود أمامه

استلقيت بفراشي وحاولت النوم ولكن لم أستطع تأملتُ نوم
وعد وسلام وأمي ما أجملهن تُرى كيف يفعل أبي في هذه
اللحظة وما الذي سافعله غداً ،ماهو السلام الذي ينتظرنا
حيث وعدتُ به أخوتي ومن أين سأجلب المال وأنا على هذا
الحال اللهم ارشدني فلم تعد روعي تطبيق التعثر أكثر أين
أنتن يا صديقتي؟ ليتنا سوية فأنتم مصدر قوتي ، أغمضتُ
عيني غصباً وحاولتُ النوم إذ كانت من أصعب الليالي بعد
ليلة فقدان أخي نفس الشعور ونفس الألم ولكن المكان
مختلف في الخيمة التي يعم أرجاءها الظلام ونسيم الألم
والظلم موجود...

في صباح اليوم الباكر استيقظتُ خارجةً لاستنشاق بعض
الهواء لا أشعر بتغير شيء فما نهاري إلا كالليل الذي حل
مكانه دلفتُ مجدداً

- أماه أتطيلين النوم بعدي والله هذه معجزة
- هيا يا أمي انهضي لنفكر معاً بترتيب جديد
- مستعدةً ابنتك للعمل فقط عليك توجيهها

لا حياة لمن أنادي كل كلماتي تلك لم تغضبها كما كنت أفعل
حين تناديني وتبدأ بالأعمال المتوجبة عليّ بعد إيقاظي
-أمي مريومة هيا انهضي

مسكتُ يدها فهوت من يدي كما أن رأسها الذي هزرتَه
بذعر لم يستجب لصوتي ولا لحركاتي

-أماااااااااه ما هذا بالله عليكِ اشرحي لي

بدأتُ أصرخ بها فاستيقظت وعد وسلام مذعورتين من
صوتي وبدأتا بالبكاء أمي ما بكِ

-براءة لم تمت أمي أليس كذلك

لم أجد ما أرد عليها به فأنا لا أصدق مثلها.

موسى

بينما كنتُ أحضر الفطور لابنتي شام وقد نويتُ أن أستدعي
تلك الفتاة الجديدة في هذا المخيم لتفطر وأهلها معنا بدأتُ
أسمع نحيباً و ولولة أطفال كما استيقظت شام بهلع تقول

-أبي ماذا هناك أسمع أصوات بكاءٍ وصراخ

-لستُ أدري سأخرج وأرى بنفسي

ذهبتُ متجهاً نحو مصدر الصوت حيث بدأ يخفت فحاولت أن
أعجل من خطواتي

لأجدها تلك الفتاة تبكي وأمامها امرأة ثلاثينية أظنها ودعت
الحياة قبل قليل

-أنتِ!!

-نعم براءة يا عماه وهذه أُمي هل تساعدنا يا عم فأنا هنا فقط مع أُمي التي أمامك وهاتين الطفلتين

-بالتأكيد

قدمتُ على أمها وألقيتُ الرداء على وجهها

-مالذي تفعله أيها العجوز أهذه مساعدتك

-سندفنها يا ابنتي إكرام المتوفى في أن يُدفن

-أأحمقُ أنت من قال أنها ماتت

شعرتُ بالألم عليها فقد فقدت صوابها بفقدها أمها وراحت
تشتمني

-الأعمار بيد الله وأمك هذه رحلت للقاء ربها دعينا نكمل
مراسم دفنها

أيها الشباب أيتها النساء هنا امرأة ماتت فنناشد أصحاب
الخير أن يساهموا في تشييعها

- عماه

جحظت عيناها وشحب وجهها وهي تقولها ومن ثم مالت
على صدري وغابت عن الوعي حملتها وأمسكت الفتاتان
الصغيرتان أطراف ثوبي فاتجهتُ بهنّ إلى شام

-انتبهي لها وانظري وضعها

-ما بها يا أبت؟

- لا أعرف أظنه من حزنها على موت أمها ، هذه أمانة عندك
يا شام فأحسني لهنّ

- سأفعل لا تقلق

أكملتُ مع الناس في المخيم مراسم تغسيلها وتكفينها ومن
ثم دفنها وعدتُ من فوري لأطمئن على براءة وأختيها
دخلتُ الخيمة لأجدها مرميةً في حزن شام تبكي أمها

-كيف حالها

- الحمد لله يا أبتِ ، فإن براءة فتاةً قويةً وصابرةً بإذن الله.

-إن شاء الله

أخذتُ البنيتين الصغيرتين فغسلتُ لهنّ وجوههن وأحضرتُ
لهنّ الملابس فارتدوها ودخلنا معاً لتجهيز أي شيء نأكله

- عمي أمي ماتت حقاً!!

-نعم يا صغيرتي أمكِ الآن بين النجوم تحلّق بوجهها البهي
في السماء وأخبرتني أن لديها ثلاثة بنات رائعات سينجحن
ويدخلن السرور لقلبها

-كيف ذلك إن لم تكن هنا

-ليست هنا لكنها تعرف ماذا تفعلون فتطمئن عليكم من
خلال الملائكة

- لماذا تبكي براءة إذاً

- أصابها تعبٌ خفيف سينجلي عنها بعد قليل

أين والدكِ يا وعد

-ونحن قادمون إلى هنا أخذته عناصر الأمن وقالوا أنهم
سيسجنوه

- سيخرج بإذن الله

- أهذا يعني أننا سنبقى بلا أم ولا أب يا عمي

- مؤقتاً حبيبتي مجرد وقت قصير وسيرجع والدك

-إن شاء الله

وأمي لن ترجع إذن

-لا لن ترجع

رجفت شفتاها وابتعد صوتها

-لماذا؟؟

-حبيبتي نحن هنا زائرون سنعيش عمراً ليس بالطويل
ونرجع حيث أتينا وهناك عند الله كل شيء أجمل خلقنا
سبحانه ليرى كيف نفعل فإما أن نرضيه بتصرفاتنا فيدخلنا
جنته ويذيقنا من النعيم أو نعصيه فندخل النار ونتعذب في
الجحيم

- أمي ستدخل الجنة أليس كذلك

-إن شاء الله أكانت تصلي

-نعم كانت تصلي كل الأوقات وتقرأ القرآن والأدعية

وازدادت صلاتها بعد استشهاد أخي أحمد

-رحمه الله ، بإذن الله سيكونا في الجنة معاً فلنفعل ما

يرضى ربنا لنلحق بهم بإذن الله .

-سنفعل

-وأنتِ يا سلام ألا تتكلمين

- لا يا عمي لم تتكلم بعد

-كم عمرها

أربع سنوات لكنها لم ترضع الحليب من أُمي قط ولهذا تأخر
نطقها

- أنتِ ذكيةٌ جداً يا وعد

غداً تتكلم بإذن الله فإنها ذكيةٌ كأختيها أليس كذلك يا سلام

هزت رأسها بالقبول

-الآن صار غداؤنا جاهزاً

عماد

بينما انتظرتُ طويلاً أن تتحرك الحافلة بهم فقد أتعبني
منظرهم وهم يبكون ويرجون من هؤلاء الأندال أن يدعونا
معاً

انطلق السائق بهم فودعهم قلبي طالما كانت عيوني
محجوبتين عن رؤية تلك المشاهد المأساوية وبعد ساعاتٍ
من سحبنا في الطريق كلاً من قميصه

وصلنا السجن الذي تحول لملاذٍ نطمح إليه حيث رأينا
الموت داخل العتمة في الطريق

أدخلني ذاك المجرم فرع جنائي فتلقيتُ أقسى أنواع التعذيب
فيه ورأيتُ الذل بكل أشكاله والضعف بألوانه

كان بعد الضربات واللكمات المستمرة دور الصلب فصلبوني
ومعي آلاف الشباب على حائط السجن طوال الوقت كنت
أنتظر تلك الساعة التي سأنظر في عينيّ ذاك الوضع
وأتكلم بجرأةٍ كتلك التي حدثته بها ابنتي براءة لكنه للأسف
لم يكن هذا اللقاء

أردتُ أن ألقّهم درساً بأن العرب ذو لحمٍ مرّ فمن المستحيل
أن ينهشوا به حاولتُ أن أشرح لهم عن الخبث والطغيان
الذي عندهم ولكن ثمة شخصٍ لم أقابله لا أحد يبالي
بوجودي هنا حتى تعذّبي أوكلوه لجنديٍ حقير ما كان
ليسمعني أو يحادثني كانت لغته الوحيد التي يفهمها هي
الضرب

الأطعمة والماء كلها تمر أمام ناظري ولا أنال منها سوى
النظر

لغنهم الله وقتلهم في طغيانهم وتجبرهم وبعد مرور أسابيع
لم أميز ليلاً عن نهارها فالعنة هنا سيدة المكان وقعتُ
أسيراً لأولئك الجبناء ولموت فقد تلفت أطرافي من شدة
الربط عليها وماتت الأعصاب داخلها أما جلدي فقد نهشت
فيه ديدان الظلم حيث تقرحت الجروح وتسليخ اللحم والتهب
قلبي فزاغ بصري و جف لعابي لأسقط أرضاً لولا الحبال
الحديدية التي ثبتوني من خلالها على الحائط

وعندما اقترب أجلي وانقطع أملهم مني كما ينقطع عمل
الإنسان بعد وفاته

فأردفوني إلى سجنٍ آخر لا أتعذب به ولكنني أبقى أسيراً
هكذا أخبرني أحدهم وربما هو من أحد المساجين لا أدري
ما أعرفه فقط أنني سأرتاح قليلاً من إجرامهم وهم ينقلوني
مررت بكافة زنازين التحقيق أو الإجراءات القانونية
اللازمة كما يسمونها حين يتركون الواحد فيها حتى ينتشله
الموت ولا ينفذ إلا بذلك كنتُ أسحب أقدامي ورأيت كما لو
أنني أسحب حجارةً ثقيلة عينايا وقلبي وعقلي وكل شيء
كبحتهم ضرباتهم المتوالية عن العمل إلا سمعي فتمكنت من
سماع أصوات النساء يتعذبن ويبكين بحرقةٍ شديدة كنّ
يصرخن بكل قوةٍ وألم ويستجدن بؤلائك عديمي الأخلاق
والشرف ليتني لم أسمع

يا الله أعرف أنك تراني وتتنظر أمري فألهمني الصبر
وامنحني قوةً وثبات

اللهم إنهم هتكوا أعراض المسلمين فخذهم بما يعملون
اللهم تدبرنا بأمرك واحرسنا بعينك التي لا تنام
بكيثُ أصواتهن ودمعاتهن بكيتُ صرخاتهن وأوجاعهن وقد
ضاق الكون بي ذرعاً فصغرت الدنيا بعيني

براءة

تلقيتُ صدمةً كارثيةً عند موت أمي فبدأتُ أحكي ما لا أقصد
معناه قلتُ الكثير للعم موسى دون إرادةٍ أو وعي لا أعرف
كيف تفوهتُ بكل هذا لم أقدر على استيعاب هذا الكم من
الألم كيف أخرج من عائلةٍ كاملة لأكون وحدي مسؤولةً عن

طفلتين وفي الخيمة إذ لا سكن ولا وطن لم أجد وقتها إلا
ذاك الرجل المسن لأشتمه بغباءٍ وحماقةٍ ورغم ذلك كله فقد
ساعدني وأدخلني خيمته فكان لي أهلاً أما ابنته شام فكانت
لي رفيقةً رائعةً رغم تباعد الأعمار والأقدار بيننا

ومن شدة ألمي وصدمتي لم أنتبه لحال شام حيث أنها طيلة
أيام مكوثي عندهم ما وقفت على قدميها قط وكانت تطلب
الماء والدواء من أبيها

وفي يومٍ قررتُ أن أغسل الحزن من قلبي حتى أبدأ بمحاولةٍ
جديدة لكنها هذه المرة للأسف الشديد دون طيف أُمي .

وجّهت الشمس أشعتها الحادة على عيني فشقتهما لأستيقظ
وأواجه صباحاً آخر نظرت بنصف عين لأراه جالساً يشرب
كوبه الشاي

-لقد حانت الفرصة

قلتها في نفسي وأنا قادمةٌ إليه

-صباح الخير عمي

-صباح الخير يا براءة كيف حالك اليوم أود أن تكوني بخير

-نعم بخير والحمد لله

ولكن

-ما بك أيلزمك شيء

-لا لا أريد فقط أن.....

-ماذا أخبريني فأنا مثل أبيك مالك تتلعثمين وكأنني غريب

بكيتُ مجدداً وقد ارتميتُ في حضنه وأنا أردد ليسمعني
- نعم يا عماه أنت مثل أبي فاعذرني على حماقتي قطع الله
لساني قبل أن...

- أهذا ما يقلقك هوني عليكِ فكلما تك الغاضبة لم تضايقتني
منك

- لكنني أنزعج من كلامي ليتني لم أكن في تلك اللحظة
- إنما كنتِ دعك من هذا الآن ولتفكري بمستقبلك
مسحتُ دموعي وعدلت من جلستي وأنا أفكر
- مستقبلي يا عم ومن أين يكون لي مستقبلاً وما هذا الذي
أمامك إلا حاضري
- متشائمة إذاً

- لا لا ولكنني أرى الأمور تصعب وتتعرقل ولا أجد لي
سبيلاً للخروج من حالتي تلك
- ما زالت البداية أتتعبك البدايات أم أنك تحبين بعد أن فقدتِ
أمك وصار الأمر متعلقاً بما تحكمين أن يعود أبوك فيجدك
كما أنت لا بل ازدادت حالتك تدهوراً ويجد أختيك على الحال
الذي ترككم فيه باستثناء الأعمار فالكل يكبر يا براءة
تذكرتُ تلك المرأة المسنة وأولادها تحت التراب أمامها
وتذكرتُ صمودها وإيمانها وهذا الآن أمامي يعطيني درساً
آخر

- سبحان الله يا عمي ما أشبه اليوم بالبارحة إذ كنتُ أقول
ما تخبرني به لأمي وأجدها تعبت من طول المسير وأنت

الآن تلقيه عليّ فأطمئنك يا عمي سأتغير وأحقق هدفي الذي
طمحتُ به منذ الصغر

-نعم يا براءة فنحن خلقنا على أرض الاختبار وسخر الله
بعضنا لبعض ليشهد أزره وقد اختارني الله لأكون يدك يا
ابنتي فاضربي بها حيث شئتِ واطلبي منها أن تخوض
بين الرماح فتلبيك من فورها

-أشكرك يا عم ، عماه أخبرني عنك كيف أنتما هنا فقط أين
زوجتك ألم يكن عندك أولاداً غير شام

-لدي ولدين وابنتين واحدة متزوجة لا أعرف عنها شيء
منذ اندلعت الاشتباكات في القرية والأخرى شام التي تعرفت
إليها أما أولادي فقد استشهدوا بالقصف المدفعي وزوجتي
توفيت قبل عشرين عاماً بسبب خطأ طبي أثناء إجراء
عمليتها القلبية أما ابنتي شام هذه التي قدمت معي فقد تم
قصف منزلنا فأصيبت بالشظايا التي اجتازت النخاع الشوكي
في ظهرها وأصابتها بالشلل.
استمعتُ إليه بدهشةٍ طاغية

ماهذا أهذا سيناريو لأحد أفلام الرعب أم أنها روايةٌ تحت
عنوان بين الركام

-ستلتقي يا عماه بأختها إن شاء الله أما الذين ماتوا فقد
سبقونا للجنة أليس كذلك

-بلى إن شاء الله في الجنة

ثم أمسك يدي وأدخلني الخيمة مرةً أخرى ونظرتُ لشام
للمرة الأولى حيث كانت فتاة في الخامسة و العشرين من

عمرها تمتلك عيوناً واسعة لونها كلون البحر تتوسط
وجنتيها حمرة وردية تبدو وكأنها القمر إذ ابتسمت قائلةً
تفضلي يا براءة

-اقتربت منها وأمسكت يدها لأشكرها على عطاءها
ووجودها جانبي

-أخبرك أبي أنه هو من يقوم برعايتي هنا!!

أومات برأسي لها

-نعم فعل

- الحياة تستمر يا براءة فهنيئاً لمن طلب العلا فحقق المريد

-أتأملين بهذا!!

- كلي أمل ويقين بأن من أراد بعزيمةٍ وإصرار سيصل

- سنصل إذاً

- إن شاء الله

- أتساعديني يا شام فقد تهت في طريقي

-سنكون معاً لا تقلقي

-إن شاء الله

بعد عدة جلسات عرفتُ أن شام قد درست معهد تمرّض
فسألتها أن تعلمني بعض الإسعافات الأولية وبالفعل كان
ذلك.

عماد

ركلني الجندي بقدمه ذات النمرة الخمسين على ما بدا لي
فقد قسمت ظهري نصفين ولم أعد أقوى على الانحناء حيث
تصلبت أعصابي وصرت قطعة واحدة بلا مفاصل أو عظام
لا أدري فكل شيء يؤلمني وبشدة فدلقت للزنزانة رقم مئتان
وثلاثة ورافقتني بعض الشتائم المغلظة لأقع بين أيديهم
أولئك الرجال المساجين المساكين بقلوبهم النقية وعزيمتهم
القوية فساندوني وأجلسوني بينهم بصعوبة وراح أحدهم
يُدعى مازن ينفذ الغبار من ثوبي ويمسح جروحي بمنديله
حيث أخبرني أنه اتخذ من رداء تخته منديلاً وثوباً وحقيبة
تحتوي كل أغراضه فقد كان خياطاً ماهراً يُقسم برأسه قبل
أن يدخل السجن كما شاركني مازن همومه وسألني أن
أقص عليه خبر وصولي إلى السجن

-أعرف أنك متعبٌ ومنهك ولكنني أحب أن أتعرف عليك
وتفتح لي قلبك المهموم فقد مررتُ بنفس اللحظات وعشتُ
مشاعرك ذاتها

-أحقاً أم أنك تحكي بالفراغ وكيف تعرف بما مررت وأنت
تراني للمرة الأولى حتى اسمي لا تعرفه

-الفراغ..... انظر حولك فنحن بين الجدران الأربعة ربما
اختلفت الأحداث ولكن الحال واحد

- اعذرني ولكنني مُصابٌ في نفسي وعائلتي ما أصعب أن يسوقَكَ أحدٌ إلى المصير المجهول لتبتعد عن كل مَنْ عرفتهم وتتعرف على غيرهم

-أعلم أعلم، ولكنهم هكذا يتلذذون بتشتيت شملنا ، لن أتعبكَ أكثر ليسترح بالك قليلاً وإن لزمك شيء أخوك مازن بالخدمة فلا توفره

-ألم تسألني عن قصتي إن كنتَ سامعاً فأقص لك ما جرى معي

-على الرحب والسعة تفضل أخي

-أنا عماد الياسين من حلب لدي زوجة وأربعة أولاد منذ فترة استشهد كبيرهم أحمد فخلع قلبي وأخذه معه ليبقى عندي ثلاثة بنات

أكبرهم براءة وهي في المرحلة الدراسية الإعدادية كما أن وعد وسلام في أوائل عمرهما

كنتُ أدرس العربية قبل أن تتدلع الحرب في حي الفردوس وبعد أن قضى الله لنا في التهجير قصدنا أي مدينةٍ أخرى آمنة نعيش فيها بأمانٍ وسلام ليطمئن قلبي على زوجتي وبناتي فتكمل براءة دراستها وتدخل الجامعة

توسّعتُ في شرح مسيرتي رغم أني حاولتُ الإيجاز والاختصار وأنهيتُ حديثي ببكاءٍ طويل بلّل لحيتي فرقَ قلب مازن على حالي وراح يعانقني كما لو أنه أخي أو صديقي الذي تعرفتُ عليه قبل سنين

استعدتُ قوتي وغيّرتُ نبرة صوتي وأنا أسأله

-كيف وصلت إلى هنا

- دعك مني فقستي طويلة لا أريد أن أزيد من همك

-لا لا أخبرني فأنت رجل طيب يا مازن وأتمنى لو أنني
لقيتك في وقتٍ مختلف ولكننا أصدقاء ولو في السجن

-أنا مهندسٌ مدني من عائلةٍ فقيرة تعلمتُ منذ الصغر الكد
والتعب فاعتدتُ الأكل من عرق جبیني وحيدٌ لدى أبي وأمي
من ناحية الذكور أما الإناث فلدي أربع أخوات واحدة أكبر
مني والثلاثة الباقيات أصغر

تقدم والدي في العمر وأنا ابن تسع سنوات بدأت الجلطات
القلبية تتوالى لديه

فاضطر أن يعلمني مهنته الخياطة التي عشقتها منذ نعومة
أظفاري

إلا أن كبرتُ وكبرتُ معي خبرتي في ذلك المجال فصرتُ
خياطاً مشهوراً عند أصحاب أبي ومعارفه ثم توسعتُ دائرة
الزبائن لتضم الريف "عندان" بأكمله وهذا ما ساعدني في
التخفيف عن أبي من ناحية العمل المتعب ومصاريف البيت
وما يلزمه

وبعد فترة من العمل دخل عدة عناصر دكاني وسحبوني إلى
هنا دون أن يخبرني أحد بالسبب

- إذا أنت هنا من مدةٍ قصيرة !!

- لا لا لم تكن قصيرة ربما تعتقدها هكذا ولكنها أربع سنوات
أي ثمانية وأربعون شهراً في أول الأمر مع كل ليلة تنقضي
كنت أعاني وأكتب حتى تعودت على الحال الجديد هذا

- صدقتي لا أخاف من شيء ولكن

أكثر ما يرهقني هو التفكير بمریم والأولاد

تُرى كيف حالهم!!

أين ذهبوا!!

كيف يعيشون !!

كثرت تساؤلاتي وما من مجيب

- سترجع لهم عماد القوي البطل الشجاع سترجع وتلقاهم
بانتظارك

- أحقاً هذا !!! آآآاه يا مازن لو تعرف ابنتي براءة كم حلمتُ
بمخروجنا وعيشنا بسلام كي تحقق حلمها الكبير فلديها من
الطموحات ما لا تجده عند غيرها كما أننا فضلنا أن نحفرها
ونشجعها على المشي قدماً حتى الوصول إليه

-ربما أنت هنا لتصل فهذه الأقدار يا عماد

لو اطلعنا على الغيب لما اخترنا إلا حاضرنَا

فربك لن يختار لنا إلا الخير المناسب الذي يراه هو لا نحن

-ونعم بالله سأنهض لصلاة العشاء

-انتظرنِي كي أتوضأ

-تتوضأ كيف وقد عرفتُ أن الماء هنا ضئيل جداً !!

-يسمحون لنا بأخذ قدرًا قليلاً من الماء كل بضعة أيام
لقضاء حوائجنا فاعتدتُ أن أترك منه للوضوء.

بدأتُ بالتأقلم مع وضعي الراهن إلا أنه قد توجب عليّ العمل
فكل شيءٍ هنا يُشترى بالمال ما عدا الحرية

وقد اعتدتُ مهنة التدريس تلك لم أكن أعرف بأي مجالٍ آخر
سوى ما شابه فرعي الجامعي كالكتابة والتنقيح والشرح

وكلها لا تدر عليّ بالمال فلا أحد يطلبها هنا

في البداية كان جسمي كله مكسر لا أقوى على القيام بأي
عمل فأعاني مازن في قضاء بعض حوائجي حيث قاسمني
طعامه وسريره حتى ملابسي قد حاكها بيديه مجاناً

إلا أن استرديت بعضاً من عافيتي واستعدتُ رابطة جأشي
فحاولتُ أن أنهض من جديد وتعلّمت منه الخياطة لم تكن
بتلك الصعوبة التي ظننتها بل كانت أقل حيث لم تختلف
كثيراً عن عالم الكتب والدراسة فإنها تحتاج الدقة
والتفاصيل ذاتها وصرتُ أعاونه في عمله وقد خصص
قسماً من ماله ليشثد به ساعدي من جديد.

شام

وجدتُ روح الشباب وطموحاتهم كما رأيتُ انكسار العجائز
وخيبتهم في براءة فحاولتُ أن أمنحها ما حرمتني الحرب
منه وقطعتُ على نفسي وعداً أن أساعدها لتقف على

أقدامها بعد كل ما عانتها من فقدان حيث أخبرتني بتفاصيل
خروجها من حلب وصولاً إلى مخيمنا هذا
كان لنا درساً يومياً بالتمريض فكانت طالبةً مميزة حقاً ما
أقبح هذا الزمان الذي أوصلها لحافة الهاوية تباً له من بين
الأزمان

وفي آخر دروسنا دخل أبي بينما كانت تخبرني بأنها تخشى
أن تؤدي بحياة المريض وتخاف من منظر الدم وهو يسيل
كانت الدمعات أسيرة عينيها وحالما بدأت بالكلام عن
مخاوفها أطلقت سراحها

-ما بها براءة ألا تجتهد كما يجب إن كان هذا يا شام
أخبريني !.

ضحكتُ لمداعبته، براءة وقد ابتسمت بدورها فقلتُ

-براءة يا أبتِ، طالبتي الرائعة و عملها الآن لن يأخذها إلا
لطموحها

وهدفها

ولكنها تملك بعض المخاوف يا أبتى وأراها ستسيطر عليها
ولن تدعها تتغلب على أحلامها أكثر من اللازم

-بالطبع ستنجح وترتقي ولكن حلمها هذا لن يتحقق
بدروسك فقط لا بد من الالتحاق بمدرسة أليس كذلك يا
براءة!!

-بلى أود فعلاً أن ألتحق بمدرسة ثانوية ولكنني أجد في هذا
حرجاً كيف أترك عندكم وعد وسلام

- أين المشكلة بالعكس تماماً فأنا أتسلى معهم كما يقضون وقتاً ممتعاً مع شام فيساعدونها في شؤونها
تحمستُ للفكرة لا بد من دراستها بالشكل الصحيح المعتاد
وما تدريسي لها إلا للخبرة
-إذاً كما تشاء يا عمي سوف أنطلق غداً لأسجل اسمي في
مدرسة المخيم

براءة

استيقظتُ لصباحٍ جديدٍ وبدأتُ نهراً مستبشراً قلتُ في نفسي
أنتِ رائعة يا براءة و ستنجحين أياً كانت المصاعب فأنا
متيقنة بأنك ستكونين أجمل طبيبة عرفتُها وستجدين
صديقاتك وأبيك لن يخذلكِ شيءٌ بعد الآن .
التحقتُ بالمدرسة الثانوية ولحسن حظي كانت السنة الأولى
التي قبلت فيها الإدارة بالمرحلة الثانوية حيث كانت في كل
عام تكتفي بالمراحل الابتدائية والإعدادية
وصرتُ طالبةً في المدرسة المخصصة لطلاب المخيم
ودرستُ مرحلتي الثانوية كلها فيها
فكنتُ بين الدورة التدريبية مع شام والمدرسة وقد حاولتُ
أن أوازي بين الاثنين فنجحتُ في الأولى مع القليل من
الخوف أخبرتني شام أنه سيتلاشى بمجرد التنفيذ العملي أما
الثانية فقد تأخر نجاحي حيث اعتدتُ التأجيل والتمهيل إلى
أن اقترب آخر امتحانٍ مدرسي والذي سينقلني إلى الجامعة

ولا أريد شيئاً كما أريد أن أحقق حلمي بأن أكون مثلك يا
أحمد ذاك الحلم الذي جمعني وصديقاتي حلم أمي وأبي حلم
العم موسى وابنته الحبيبة شام سأصير ما كتبه الله لي
وسأبلغ غايتي بإذنه

بدأ العد التنازلي لأول مادة متوترة أنا ومتعبة من كل
النواحي النفسية والجسدية العقلية والقلبية

في مثل هذه اللحظات كان أبي يبحث عن سعادتي بالمشاوير
والترفيه حيث يختار فلماً عربياً أو مسريحة ونشاهدها معاً
أما أمي فكانت تطهو لي أكثر أكلةٍ أحبها وتشتري لي
ساعتي المفضلة وحقيبة جديدة رغم أن التي أسمىها قديمة
يحلم فيها الكثيرون هذا ما تدرده دائماً لكنها تشتري لي في
النهاية كل شيء في كل وقت، ما زلتُ أذكر استيقاظي باكراً
ونهوضها معي فتنادي برااءة هيا يا حبيبتي الساعة
الخامسة والنصف الآن ألا تنهضي

-بلى يا أماه لست نائمة بل جلستُ لأدرس

فتأتني بالمكسرات وقطع الشوكولاتة وحين أرفض لقلة
شهيتي تنهرني بقولها

- "العقل السليم في الجسم السليم"

"غذِّ جسمك يتغذَّ عقلك"

فلماذا ترفض طبيبتنا المستقبلية غذاها

-حسناً سأتناول كل شيءٍ تأمريني به

- لا بل يطلبه دماغك ويحتاجه قلبك

-هو ذاك لا أرى فارقاً كبيراً

كل ذلك حتى لا يدع كل منهما للكآبة حظاً مني قبل الامتحان
وبسبب الاكتئاب وشعوري بالغربة ذهبتُ للمادة الامتحانية
الأولى وقد درستُها جيداً

إلا أنني توترتُ من طرقات حذاء المراقبة ومنظر الطالبة
التي سقطت أرضاً بعد أن استلمت الورقة كل شيء
استعادته ذاكرتي اللعينة في تلك اللحظة منظر ذاك القبيح
الذي ركل أبي ومن ثم اعتقلوه

مشهد صباحي حين ماتت أمي

حتى أحمد مر بي كل شيء حاويتي رغم ذلك كنتُ أكتب
أغلقتُ عيوني أكثر من مرة ونفضتُ رأسي لتخرج تلك
الذكريات ما هذا وقتها

حاولتُ أن أجز ما تعلمته من شام والعم موسى والمرأة
التي فقدت أولادها جميعاً

تذكرتُ وعد وسلام لا سأبذل جهدي فَمَنْ تركتُ ورائي
يستحق التعب

صديقتي أتراهنّ يمتحنون الآن للثانوية أم أنهنّ في وضعٍ
أصعب

نادت الأنسة التي تراقبنا لقد مضى أكثر من نصف المدة
فَمَنْ انتهى بإمكانه الخروج

-انتهى يا براءة من الامتحان أين أنتِ

-لستُ أدري ما هذا الذي أفعله بنفسي

-حلمك يا براءة تضعين اليوم ختمك وتوقيعك عليه
بمنتصف الطريق

-لقد تعبت وكثرت الأزمات لا لن أقدر سوف أنسحب

- هناك أب في السجون يتخيلك باللباس الطبي وصديقات
ابتعدن ظلوا على يقين بأنك تقدرين وتنجحين

- أعلم هذا لكنني...

-موسى يا براءة يعتبرك كابنته وكذلك يعاملك فلا تهدري
ثقتك فيك ولا تخذلي شام التي عرفتيتها تلك التي كانت
مصيبتها في جسدها وأهلها وبيتها رغم ذلك استطاعت
- وأنا سأقدر إن شاء الله

ذاك حديث داخلي منحني شيئاً من المقاومة والإرادة
فأكملت الكتابة والدموع قد بلّلت الورقة الثانية
قدم المراقب إليّ

-ما بك أتعانين من شيء إن كانت المشكلة في الإجابات فلا
داعي لهذا القلق كله إنه السبب فاحذريه

رفعت ناظري إليه بكلتا العينين الباكيتين لأجد أمامي شاباً
وسيماً بعيني خضراوين كحال الزيتون وبشرة سمراء
جذابة وشعر بني أجعد فقلت له

- سأفعل يا أستاذ

مسحت دموعي وألقيت النظرة الأخيرة على الورقة وقلبي
يخفق بشدة استلمها مني وخرجت آخر طالبة من القاعة

سارعتُ إلى دفترِي لأجدي مجيبةً على سؤالٍ مغايرٍ أما
بقية الأسئلة فلا بأس فيها غلقتُ الدفتر وأجهشتُ بالبكاء
ليتكَ يا أمي أكملتَ لي قصة الفتاة الطموحة التي لن تصل
للقمر حتى أفقد الأمل من المرة الأولى ولا تمر بي تلك
الخيبات

لحق بي الأستاذ نفسه

-براءة أنت ذكية و ورقة امتحانك تبدو جيدة الترتيب والخط
الحسن يساعد المصحح فيعدل عن بعض الإجابات الخاطئة.

ضحكتُ في قلبي رغم أني لا أشتهي الضحك أبداً من أين
جاء بالقانون هذا أول مرة أسمع فيه ثم ما الذي يجعله
يلحق بي ويواسيني أيعرفني من قبل

-لكنني يا أستاذ لا أطمح للنجاح وحسب

-عرفت ذلك بنفسي فأنت تحلمين بفرع جامعي عالٍ وأهلك
الآن ينتظرونك بأملٍ ولهفةٍ وتظنين أنك ستذهبن إليهم
بالخيبة لذا تكثرين من البكاء

-عذراً أستاذ ولكنني أجذك تعرف داخلي أتعرفني

- لا لم أعرفك من قبل بل عرفتكَ الآن كما أنني أعرف
طفولتك

-كيف لا بد أنك تمسنا بقرابة

أمي أم أبي في الحقيقة يا أستاذ أرى وجهك مألوف بالنسبة
لي

-أستِ براءة عماد الياسين

-بلى قد رأيتَ اسمي في الورقة أليس كذلك
- إنه كذلك أخيك أحمد الياسين وهذا ما لم أقرأه بالورقة بل
عرفته بنفسى
- نعم إنه أخى الكبير
- تبين لي ذلك من الملامح المتشابهة كما أنك لم تتغيرين
كثيراً عن طفولتك
- إذا أنت صديقُ أحمد
لحظة من فضلك أنت عمر الفاخر الحمصي كنتَ تزورنا
فتبيت عندنا
- أنا هو ...تخرجتُ من معهد إعداد المعلمين والآن تم
تعييني موجهاً ،
كيف يفعل أحمد كم اشتقتُ إليه أما هو فلا يسأل عن صديقه
وأخيه
-لا تعرف إذاً
فقد استشهد أحمد قبل سنوات في حلب ونحن قدمنا بعد
وفاته
وقع الخبر عليه كالصاعقة فتغيرت ملامحه وكأنني أقيتُ
عليه دلواً من الماء البارد في شهر شباط
-حسبنا الله ونعم الوكيل
براءة انتهى دوامي ما رأيك أن أوصلك للبيت
-إن لم يكن هذا محرراً

- لا لا هيا دعينا نخرج الآن.

شام

انتظرتُ براءة وقد كان قلبي يغلي من الخوف رغم أنني
استرجعتُ معها كل المعلومات قبل أن أنام في ليلة امتحانها
ولكنني أخشى أن تضيع بعد فقدان أهلها ويتبخر حلمها في
أقاصي السماء.

لا لا براءة ذكية وستبلغ غايتها قلتُ في نفسي ثم ناديتُ
وعد صديقتي الصغيرة

- ما رأيك يا وعد أن نحضر معاً الفطور ريثما تصل براءة

- موافقة يا خالتي

- وعد ما خالتي هذه لا تعود لي لها نادني باسمي قل لي شام

- سأفعل يا شام

قالتها بطفولة طاغية وراحت تأتي بالأغراض التي أطلبها

دخل أبي يسألني

- ألم تأتي براءة بعد؟؛ أجدها متأخرة.

- لا لا يا أبي في المادة الأولى لا بد من التأخير رهبة

الامتحان والقلق جوٌّ جديد يحتاج بعض الوقت

بينما نحن نتحدث جاعني صوت سيارةٍ من بعيدٍ قادمٍ إلينا

التفتُ إلى أبي بتعجب وقلت -سيارة هنا في المخيم

- ربما استأجرها أحدٌ من هنا فعندما يقدمون لنا المساعدات يفعل الكثير هذا إذ يصعب حملها عليهم فتحسستُ ظهري وأقدامي يقصد مثلي
- دنت منا السيارة أكثر ووقفت عند خيمتنا لتتنزل براءة ومعها شابٌ غريب لم أره من قبل ركضتُ إليّ تبكي بينما هو وقف عند السيارة فذهب أبي إليه
- كيف كان امتحانك يا براءة لم يكن كما تتوقعين أليس كذلك!
- لا أعرف ولكنني وضعت جواباً لسؤالٍ آخر أنا آسفة يا شام
- لا بأس لن تفقدي الكثير من العلامات فلا تقلقي ولم تعذرين
- لأنني خيبتُ أملك والآن أزحْتُ الطب من طريقي بيدي هذه
- لا تقولي هذا إن كان نصيبك فسوف تبلغينه
- إن شاء الله
- هيا إلى الفطور أيضاً سؤال
- ماذا
- مَن هذا الشاب الذي يقف معه أبي وأوصلك بسيارةٍ فاخرة
- هذا صاحب أخي أحمد رحمه الله وهو موجهٌ الآن في المدرسة
- إذاً اذهبي إليهما وأخبريهما أن يقدمتا لتناول الفطور

- سأفعل

موسى

حين نزلت براءة من سيارة ذاك الشاب شعرتُ بالدماء تفور
في رأسي كيف لها أن تفعل ذلك تملّكني خوفٌ من ضياع
مسؤوليتي

ذهبتُ إليه فأخبرني أنه موجهٌ في مدرستها رغم ذلك ثمة
حلقة مفقودة لا أفهمها جاءت براءة تنادي

- عمي موسى أستاذ عمر هيا أقدم فالفطور جاهز

استجبنا لها فأوميتُ لبراءة أن تظل أما الشاب فأدخلته
الخيمة وأخبرته

- لحظة ولنلق بك

- لا مشكلة خذ راحتك يا عماه

دلف الخيمة واقتربتُ من براءة

- ماذا يا عمي أهنأك أمرٌ خطير

- من هذا !!

- هذا موجه في مدرستي وصديق أخي

- وكيف تأتين معه وبجانبك بالسيارة أخبريني؟

- لا يا عمي لم يكن غريباً فقد أرضعته أمي مع أخي أحمد

فإن أمه قد تعبتُ أثناء ولادتها فظلتُ شهراً كاملاً لا تدرّ

الحليب وكان بيننا كما كان أحمد رحمه الله إلا أنه أكمل

دراسته بحمص حيث انتقلوا إليها وبقينا في حلب فابتعدنا
ولكن علاقة أخي معه لم تنقح حتى استشهاده

- اعذريني يا براءة لكنني أخاف عليك فإنني الآن بمنزلة
أبيك رده الله سالماً

- بل أشكرك يا عمي على حبك ولا أعرف كيف أرد جميلك
هذا

- بالنجاح

- سيكون بإذن الله

عمر

دخلتُ الخيمة المتواضعة تبدو أنها نُصبت منذ زمنٍ طويل
لا أعرف أين أنا ومن هذا الذي حقق معي خارجاً لا بأس
سأسأل براءة لاحقاً ظلت مستلقيةً في فراشها تلك الفتاة
العشرينية الجميلة التي سحرتني من اللحظة الأولى فتعثرْتُ
بالدخول وكدتُ أن أسقط لولا لطف الله بي وبعدها تلعثمت
بإلقاء التحية

فردتُ باقتضاب مما زاد من ارتباكِي

حتى بقيتُ واقفاً أمسك طرف قميصي بخجلٍ كما كنتُ أفعل
بطفولتي فقالت

- ألا نتعرف
- أنا عمر الفاخر صديق أحمد شقيق براءة وبإمكانك أن تقول لي شقيقها أيضاً
- تشرفتُ بك وأنا شام ابنة هذا الرجل الذي استوقفك خارجاً
- أهلاً بك يا شام
- أجد لهجتك هذه مألوفة فمن أين أنتم
- وُلدت في حمص وعشتُ فيها منتصف عمري تقريباً أما الآخر فأكملته هنا بهذا المخيم
- وأنا عشتُ في حمص ودرستُ فيها فتخرجتُ منها إلى أن جاء فرزي إلى مدرسة مخيمكم
- إذاً أنت مدرس!
- لا إداري ، وأنت
- درستُ معهد التمريض قبل إصابتي فأنهيتها وتخرجت وكان ذلك كله في حمص وبعد ذلك شاءت الأقدار أن تقعدني قذيفةً لئيمة بقية عمري
- الحمد لله على سلامتك
- سلمت.
- طيلة جلوسي مع شام كانت وعد وأختها تتغامزان لبعضهما حيث أخبرتني شام أنه لم يتبقَّ لبراءة من أهلها سوى تلك الطفلتين
- فقلتُ باستغراب أين البقية

حينها دخلت براءة ومعها العم موسى والد الجميلة شام
تناولنا الفطور جميعاً ثم عدتُ لعملي وقد وعدتهم أن أكرر
الزيارة لما رأيته منهم كما عاهدتُ نفسي أن أقدم لهم
المساعدة المادية والمعنوية فقد دخلت شام قلبي رغم
وضعها هذا وقد طربتُ لنبضاته الجديدة

عماد

تحسن وضعي كثيراً مع انقضاء السنوات الأولى في هذا
السجن المظلم حيث لم أعد أراه بتلك الظلمة وأصبحتُ
بفضل الله ومن ثم مازن خياطاً ماهراً.

بينما كنت أفكر في حال عائلتي وأحسب المدة التي قضيتها
هنا في السجن فقلتُ

- أتراها دخلت الجامعة

- مَنْ

ويحي أكنتُ أفكر بصوتٍ مسموع

حتى سألني مازن

- ابنتي براءة

- إن شاء الله فإنها ذكية كما تحدثني عنها ولا شك أنها
تخطت مرحلة الغربة

- ذكية ولكنني تركتهم في الباص الأخضر ربما لا يزالون فيه وربما وصلوا الخيام لأننا لا نعرف أحداً خارج حلب إلا أقاربنا في حمص وقد قُصفت هي الأخرى

- تفاعل بالخير يا رجل أيعقل أن تقعد مكتوفة الأيدي ثلاثة سنين

- لا لم تكن براءة التي تفعلها

- تماماً فالمرء لا ينبج إلا مثله

- وأنت قد عرفتكَ شجاعاً قويا وعلى أغلب تقديري فامرأتكَ مثلك

- مريم صلبة من الخارج أما داخلها فقد صار هشاً ضعيفاً بعد موت أحمد وهذا ما يقلقتني

- سلم أمركَ وأهلك إلى الله فهو أرحم عليهم منك وما كان باليد حيلة فلا جدوى من الألم

- محقٌ أنت دائماً يا مازن وربما تقول هذا لأنك لم تتزوج بعد

- بعد!!

ما أجملها من كلمة تشي بالأمل

- ولم لا ستتزوج بإذن الله وتنجب أطفالاً رائعين مثلك

-إن شاء الله

ولكن تفاولي هذا لم يكن سببه أنني عازب

فقد تركتُ ورائي أهلي وأصحابي ومستقبلي ألا يكفي هذا

-بلى والله أنت رائع يا مازن
جاء مدير السجن يطلب ستائر جديدة وأغطية ووسادات
حملة تجديد لكل المواد القطنية
وأخبرنا بأنه بعد فترة سيطلب منا أن نخط لباساً جديداً لكل
سجين فقد اقترب العيد
توجب علينا العمل ساعاتٍ طوال يومياً وكان مازن يؤنسني
بكلامه العذب ويغني دائماً كي أصحو من نعاسي الذي
سيغلبني بعد قليل لا شك وبالكثير من الأحيان تهرب دمعاتي
غصباً عني فبصوته الحنون يمر شريط الذكريات المؤلم
أما أنا فأسرد له القصص وأقرأ عليه من الأشعار التي
حفظتها فيسلي بعضنا الآخر .

براءة

أخيراً أنهيتُ امتحان الشهادة الثانوية وسأنتقل بعدها إلى
الجامعة كتبت، في بقية المواد بطريقة رائعة وأستحق
العلامات عليها ولكنني أخاف من المادة الأولى
وعندما انتهيتُ من دوام المدرسة والامتحان توجب عليّ
العمل فأخبرتُ شام بذلك وشجعتني لذا نمتُ على أمل اليوم
الجديد وقد أشرقت شمسهُ لأذهب إلى المشفى الخاص
بمخيمننا

-السلام عليكم أنا براءة الياسين قد سمعتُ أنكم تطلبون
ممرضة وأنا أمتلك الخبرة في هذا المجال

- وعلیکم السلام حسناً ستخضعین للاختبار أولاً فإن اجتزته
وظفناک عندنا وصرت زميلةً لنا وإلا فاعذرینی

- حسناً أنا جاهزة الآن

-إذا تفضلی معی إلى غرفة المعاينة

لازمته و أجريت اختباراً ورقياً وآخرأ عملياً

- وطلبوا مني أن أنتظر في غرفة الاستقبال ريثما يأتونني
بالنتيجة جلستُ أنتظر و شعرت أن قدمای ترتعشان فقد
توترت كثيراً وبدأ قلبي يخفق بشدة

ماذا لو لم أنجح من أين سارد دين العم موسى؟

ومن أين سنعيش؟

وهل سأخيب أمل أبي بي سمعت خطوات أقدامه تقترب
نحوي ثم توقف فوق رأسي رفعت ناظري إليه فقال

-اذهبي الآن بسرعة

توقف قلبي عن الخفقان وثبتت قدمای لقد فشلت في
الاختبار يا الله كن معي ثم أكمل قائلاً

-وارجعي غداً في الساعة الثامنة صباحاً فلدينا عملٌ كثير

وأرفق كلامه بابتسامة أردت التصفيق والتهاف والقفز
لكنني تظاهرت أمامه بأنني فتاةٌ عاقلةٌ وناضجة خرجتُ
من العيادة وصوت العصافير يزقزق في أذني ها قد خطوتُ
الخطوة الأولى وما أجملها من خطوة كانت شام تنظر
وصولي أمام البيت أقصد الخيمة وقد ساعدتها وعد في
الخروج من أركان الخيمة لتستنشق الهواء العذب

اقتربتُ منها فقالت

-هيا أخبريني بالتفصيل مالذي حصل كانت إجابتي سريعة
ومليئة بالفرح

-لقد نجحت يا شام وغداً سأبدأ العمل ضحكت شام بعمقٍ
وفرّح

-هنيئاً لك يا حبيبتي

في صباح اليوم التالي بدأتُ بالعمل وكنتُ أعمل بطريقةٍ
أعجبت الكادر الطبي كله وما زادني خوفي إلا انتباهاً
وتركيزاً

بعد شهرٍ من العمل جاءني المدير فأعطاني مبلغاً مالياً
وقال هذا مرتبك الشهري وإذا وجدته قليلاً أخبريني فأنتِ
تستحقين يا براءة

بارك الله بوالديك على هذه التربية كان كلامه أشبه بكلام
أبي لا أعلم لم تذكرته اليوم ربما لأنني أصبحت ناضجة وها
أنا أعمل ولديّ مرتب كما كان يحلم أن يراني خرجت من
العيادة وعيناي مليئتان بالدموع دموع الفرح ودموع الغربة
أين فرحة أُمي أين ضحكة أبي

أخي أحمد ، صديقاتي؟؟؟

كل شيءٍ بعيد.

بينما كنت أمشي في اتجاه خيمتنا المتواضعة ذهبت إلى
البقّال واشتريت بعض الاحتياجات الأساسية وأخذتُ هديةً

لشام والعم موسى وبشكل مؤكد لم أنسَ وعد وسلام حملتُ
الأكياس ودخلت الخيمة فتفاجأت شام

-ماذا في يدك

- لقد استلمت راتبي الشهري

-مباركٌ لنا معاً يا طالبتى

- بارك الله فيكِ مدرستي الغالية

شام

فرحتُ لوضع براءة الجديد حيث صارت تعمل في المشفى
ممرضةً وانتظرتُ بتلهّفٍ نتيجتها الثانوية

أما الأستاذ عمر فقد زادت زياراته لنا وفي كل مرة يأتي
معه بالأغراض غذائية أحياناً ومالية أحياناً أخرى فيقول لا
شيء من جيبي.

-تلك منظمةٌ ياعمي تصرف لكم المساعدات وهذه من حقكم

- الساعي للخير كفاعله بوركت جهودك أستاذ عمر

- هذا واجبي

وفي آخر زيارةٍ له ظلّ بوجهه المبتسم يحمل خبر النجاح
بين عينيه ويرفرف شعره من نسيمات مخيمنا

ركض إليّ وكأنني من نجحت ونظر في عيني وهو يقول

- نجحت براءة بمعدلٍ ممتاز مبارك لك يا براءة مبارك لنا
جميعاً

راحت براءة تقف فرحاً وتحمد ربها احتضنت أختيها بدموع
النجاح المنقوص أين أهلها الآن وقد طال الانتظار

- عمي موسى أستاذك في طلب شام زوجة لي

والتفت إليّ ما رأيك يا شام أتقبلين بي زوجاً

وكأنه يحمل سكيناً ويزرعها في صدري لا أعرف كيف أرد
عليه شاب مثل جماله وأخلاقه وثقافته ما الذي يمنعه في
أن يتزوج امرأة تناسبه لماذا اختارني دوناً عن الجميع

فأكمل وكأنه سمع أنفاسي وعرف ما يدور في رأسي

- أحببتك يا شام رغم كل الظروف وأتمنى أن تشاركوني حلو
الحياة ومرها فنكون معاً اثنان في واحد

نظرت في عيني أبي فرأيت القبول والتشجيع لأقول له

- نعم أقبل بك زوجاً وحبیباً وأتمنى أن أليق بك وأسعدك

- ستفعلين يا شام

عانقتني براءة بحبٍ ومسرة وراحت تحضر لزفافنا

- ستتزوجان إذاً قبل أن يبدأ العام الدراسي وأذهب إلى
الجامعة

لكي أتفرّغ لتحضيرات زفافكم

قال لها أبي

- لا تستعجليهما يا براءة ربما يحتاجان لفترة خطوبة

أطول

فسارع عمر

- لا يا عماه إن لم يكن لديكم مانعٍ فأنا أريد أن نتزوج الآن
- إذاً فلتجهّز ما يلزمك

شعرتُ وكأنني أحلم براءة في الجامعة وأنا أتزوج من ذاك
الشاب الرائع فارس أحلام كل الفتيات
الحمد لله الذي لا يضيع لنا تعباً ولا صبراً

براءة

ذهبتُ إلى المشفى فوجدتُ المدير أمامي
- صباح الخير

-صباح الخير هيا ادخلي وأحضري لنا كوبين من القهوة فلم
احتس اليوم شيء
-حالاً دكتور

أحضرت القهوة فأعطاني علبةً كرتونية
-ما هذه

- هاتف جوال البارحة بعد خروجكم قدم الكثير من المرضى
ولم أستطع وحدي إدارة الموضوع ولا سبيل للتواصل معك
فخذي هذا

- لا داعي دكتور أشتري أنا واحداً
-إن لم تقبله هديةً فأقسط سعره وأقتطعه من راتبك
ولا أريد أي اعتراض

- حسناً شكراً لك

أخذت الهاتف الجوال وشغلته وعملت عليه

عمر

في يوم زواجي من شام وقد كانت براءة مهمة بترتيب
الحفل كما تسميه والتزمت بكل شيء فهذا من مسؤولياتها
وقد جاءت الفرصة لترد جميلنا صدرت مفاضلة الأفرع
الجامعية وكانت الصدمة حيث درجات براءة لا تؤهلها
لدخول الطب البشري وهذا ما نَعَص فرحتي إذ لا سبيل
لتحقيق حلمها إلا إذا سجلت موازي وكان هذا الهاجس
يلازمها طوال الوقت بعد أن قدمت الامتحان كيف أخبرها لا
لن أصددها سأفعل ما بوسعي أولاً وإن لم يبقَ لي مجالاً
للمساعدة أخبرها

ذهبت فوراً إلى المشفى الذي تعمل فيه

وسألت عن الإدارة فأشار لي موظف على مكانها

- السلام عليكم أيمكنني الدخول!

- وعليكم السلام تفضل

- دكتور سأحدث فوراً أنا قريب براءة التي تعمل عندكم
والآن قد صدرت نتائج الأفرع الجامعية وكان عليها أن
تسجل موازي أو تُحرم من حلمها وأنتم تعرفون أكثر مني
خبرتها فقد عملت عندكم فترة طويلة

- تطلب مني أن أدفع أقساطها الجامعية ، براءة ممرضة رائعة بالفعل ومجتهدة في عملها وما تفوقها إلا ارتقاءً لنا ولكن هذا صعب جداً فالأطباء والممرضين عندي كثر كما أن المشفى الذي تراه أمامك الآن يتطلب الكثير من رواتب و أجهزة و ...

فقاطعته

- لا يا دكتور لا أطلب هذا فقط أريد منك أن تمنحها شهادة خبرة بالتمريض فأقدمها بدوري للمنظمة الداعمة لمدرستنا لتسد الأقساط بدلاً منها وبهذا تكون حجتي أقوى إذ لا غريب في أن تحصل على درجات قريبة من فرع الطب وهناك ملايين الطلاب من يقدرّون على ذلك كما أن وضعها المادي وسكنها سيساعداني

- سأبذل جهدي لأن براءة تستحق فهي تتعب وتكافح امهلني وقتاً آخر

- جزاك الله خيراً

- وإياك

أخفيتُ الأمر عن الجميع فربما تفشل خطتي هذه وكانت براءة مشغولة بالزفاف ومستلزماته أما شام فقد سألتني

- ألم تظهر المفاضلة بعد غريباً أنهم تأخروا

- تحتاج بعض الوقت حتى يدرسوا الأمر بشكل إحصائي

بعد يومين من الزواج اتصل بي مدير المشفى وأخبرني أن
الشهادة جاهزة فأخذتها وكان ما دبّرتُ له فأكرمني الله
بنجاح الأمر

ركضتُ مسرعاً إليهم

- براءة مبارك دخولك الطب بعد أسبوعٍ يبدأ الدوام فجهزي
نفسك

- أحقاً !! الحمد لله

- شام ألا تباركين لطالبتك

مسحتُ دموعها

- بلى مبارك تفوقك يا حبيبتي

فقلت وعد

- إذاً من الآن علينا أن نذهب وحدنا للمدرسة

- نعم فقد كبرت ما وصار بالإمكان أن تذهبا دون مرافقة

- سنفعل

أريد أن أدخل الجامعة فقد كرهت المدرسة

فردتُ براءة على كلام أختها

- ستكونين ولكن هذا فيما بعد فللترتيب أهمية في كل شيء

- حتى الدراسة

- كل شيء

أتقدين على دراسة المحاضرات التي يتلقاها طالبٌ بعمر
العشرين وما زلت في الثامنة

- لا لا دروسي وحدها تكفي

- إذا لا تحتجي واقبلي بمراحلك الدراسية خطوة بخطوة

عماد

بعد عشرتي الطويلة مع مازن وقد أحببته حان الوقت أن
يتركني وحيداً كما جئت وقد تم الإفراج عنه ودعني
بالدموع فأخبرته أنني سأخرج قريباً وسنظل أصدقاءً خارج
السجن كما كنا داخله ولكنني أود أن أخرج من هنا وأجدك
متزوجاً وأبناؤك حولك

- سأكون ذلك ولكنك ستخرج قبل أن أنجب الأولاد إن شاء
الله

- إن شاء الله إذا أنا الخياط الوحيد من بعدك يا صاحبي

- لا بل نحن اثنان

أم تظن نفسك ستخاد هنا

- لا لا سأخرج وألحق بك أينما كنت

- إن شاء الله

وخرج مازن من خلف القضبان ليرى نور دربه الذي حُرِمَ
منه لسنواتٍ طوال أما أنا فأكملتُ سنواتي السبعة داخل
السجن ومن ثم أخرجوني منه وقد عمموا أسماءنا أننا

خرجنا من سجنهم لكنهم لم يذكروا إلى أين وكيف يفعلون
وقد أخرجونا لجحيمٍ آخر لندخل الأفرع الأمنية مجدداً
فتلقيت التعذيب ثانيةً وتمنييتُ أن أرجع حيث لقيتُ مازن
ولكنها العودة للوراء لم تكن بقيتُ ثلاثة أعوام بين الأفرع
أنتقل من واحدٍ إلى آخر وأعاني الظلم ليلاً ونهاراً حتى جاء
العفو العام فشمّلني وخرجتُ مع باقي المعتقلين الذين أُخلوا
سبيلهم

قصدتُ حي الفردوس لكنه محاصراً فاتخذتُ بناءً قريباً منه
لأسكن به حتى ألتمس طريق عائلتي أو أدخل الفردوس
فهناك بيتي الأول والأخير

حتى مازن لا أعرف أين خرج فإنني عندما طلبتُ منه أن
يدلني على مسكنه أخبرني أن حيهم مستهدف ولا شك أن
أهله قد تركوه فسوف يبحث عنهم ويسكن معهم أينما كانوا
أجدني خرجتُ من سجنٍ إلى آخر

كيف سأجد عائلتي وأين أبحث عنهم

أرهقتني التفكير فرحتُ لموقع الحاجز الذي استوقفنا
واعتقلني حيث آخر محطة جمعتنا سوياً وصرت أسأل
المارة

باص أخضر قبل عشر سنوات مر من هنا أتعرفون أين
وصل؟

فسخروا من سؤالي تقول عشرة أعوام ومن بقي هنا منذ
عشرة أعوام حتى الآن وإن كنا سنسأل كل مارٍ في الطريق
عن وجهته فسوف نموت ملأً وسذاجة

كيف أشرح لهم عن أهمية سؤالي وجَدَّيْتَه
كيف أصل إلى عائلتي حاولتُ الخروج في كل يوم لأمضي
في طريقٍ جديدٍ لا نهاية له
حلقة تكرارية لا تتوقف فما عليّ إلا أن أحاول و أنتظر
وأصبر

براءة

يومي الأول في الجامعة كل شيء غريب شعور جديد
يجتاحني صرتُ أشعر أنني أقرب من حلمي حاولتُ أن
أدرس محاضراتي بالترتيب لن أدعها تتراكم وتقلقني كفى
ما مر بي لا مجال لأي عثرة جديدة
وفي السنة الجامعية الرابعة كانت الفرحة الكبرى
حين لمحتُ قائمةً في أسماء المعتقلين الذين أطلق سراحهم
لأجد اسمه عماد الياسين من بين آلاف الأسماء حقاً إنه أبي
رجعتُ من الجامعة ركضاً حتى وصلتُ بيت شام وعمر حيث
سكنّا جميعاً بعد زواجهم
- أبي يا شام أبي
ورحتُ أبكي في حضنها كطفلةٍ بائسة تخلصت من آلامها
- ما به والدك قولي
ركض من خلفها العم موسى وعمر لأقول لهم

- ما زال والدي حياً في ذاك السجن وقد أطلقوا سراحه قبل أيام وسنلقاه غداً

- الحمد لله يا ابنتي

قالها العم موسى بحسرة

- ما بك يا عماه أراك مهموماً

- كيف نصل إليه أو يصل إلينا أيعرف أين أنتم

سكتُ وكأن الفرحة بدأت تتخفّض شيئاً فشيئاً

- لكنه خرج من السجن وهذه وحدها جديرةٌ بالأمل

- نعم يا براءة ما يهمنا الآن هو خروجه بصحةٍ جيدة والذي

أحل القيود أمامه سهلٌ عليه أن يجمعكم

- ما أجمل كلامك يا عمي

قلبت الأيام بعضها بعضاً وأوشكتُ أن أنسى خروجه من

السجن لا خبر و لا رسالة ولا أي إشارة تشي بوجوده

وأكملتُ دراستي الجامعية وعلمي في المشفى هكذا حتى و

صلتُ للعام الأخير في الجامعة تركتُ العمل في المشفى حتى

أتفرغ لمشروع التخرج الذي استغرق معي تسعة شهور

وأيام أخيراً قدمتُ مشروعِي وقبلوا به بدرجاتٍ عالية

وتخرجت

فرحتُ كثيراً فربما نجتمع أنا وصديقاتي ونعود إلى حينا

الجميل المتواضع إن شاء الله أخرجتُ دفترَ مذكراتي من

الحقيبة وعاودتُ قراءة ذاك الحلم الذي دونته مع صاحباتي

ليلة أمس وبدقةٍ أكثر قبل عشر سنوات وبدأت بالكتابة

"كان اليوم حافلاً جداً فقد تخرجت لتوّي من الجامعة ها
قد وصلتُ حلمي بطريقٍ طويلٍ كانت الخُطى إليه بطيئةً و
شوارعه مليئةً بالأسلاك الشائكة هدوءه المُخيف وسالكه
وحيداً إلا من أصحاب القلوب النقية كما هو الحال عند العم
موسى وابنته شام أرصفته ظلت متحجرةً ومتعجرفة طوال
الوقت وإضاءته خافتة أشبه بأفلام الرعب نعم اجتزته
ولكنني لم أصل بعد إلى ما أريد صديقتي وأبي انتظروا مني
الخطوة الأخيرة سأجتازها وأصل إليكم"

أغلقتُ الدفتر مجدداً وذهبت إلى شام وعمر فأخبرتني أنها
تخبئ لي مفاجأة سافرح بها

وقبل أن أحزرها سارعت سلام بلهفة لتقول

- ستصير شام أم يا براءة فهي تخبئ طفلاً في بطنها الآن

- ماذا... مبارك يا شام أين عمر أريد أن أبارك له

- بارك الله فيك حبيبتي في المطبخ مع أبي

ركضتُ إلى المطبخ فوجدته أمامي

- أنت هنا أيها الأب المستقبلي مبارك عليك طفلك القادم

- بارك الله بالطيبة الجميلة براءة

- عرفت إذاً بتخرجي

- نعم هنيئاً لك تحقيق حلمك ألم أقل لك أنك ستصلين

- لكنني لم أبلغ غاييتي بعد بين صديقتي وأبي

- ستبلغينها وقد بدأ طريقك للمجد

- ماذا قلت يا عماه بدأ...أخفتني
- لو قلتُ انتهى لخفتُ أكثر لا بل بدأ ورحلتكِ طويلة
ستحققين فيها الكثير من الإنجازات وسوف تتعثرين لتتقي
من جديد
- أيقف شيئاً في وجهي بعد الآن يا عمي؟
- نعم فالحياة لا تدع المرء يفرح طويلاً بالمغانم ولا ينگد
عيشه دوماً بالمغارم
وخلقتنا لنجرب الحالتين
- نعم وسأنجح بالاثنتين أليس كذلك
- إن شاء الله تعلمتُ دائماً أن أستمد قوتي من العم موسى
حيث كان صريحاً واضحاً معي يصور لي الواقع كما هو
دون أن يجمّله ويمدّني بالأمل والتفاؤل.

هنا في النرى

سارعتْ أمل برفقة زوجها أنس إلى موقع الصحيفة التي
تكتب فيها رزان

فاستدلتْ على عنوان منزلها الذي تسكن فيه مع زوجها
حسن.

وطرقت الباب لتقع المفاجأة المُنتظرة
راحت الاثنتان في عناقٍ طويل أنساها كل الآلام التي ألمّت
بهما

وبعد يومين تقريباً كان موعد المُلتقى لتكريم الممرضات
والطبيبات الشابات وكان لا بد من إلقاء الكلمة التي
حضرتها رزان قبل شهور وطرق قلبها في هذه المرة
وتوترت وقد ملأت الفرحة قلبها برجوع رفيقتها أمل وقد
حان وقتُ الإلقاء وحصاد ما زرعت

" السلام عليكم مرحباً بكم أيها الأطباء الأفاضل بكم نصل
إلى المعالي ونرتقي"

بينما كانت تتحدث وجانبها زوجها حسن وشهد ووالديها
كلهم رافقوها لدعمها وتشجيعها أمسكت أمل بيدها وهزتها
تصرخ بأعلى صوتٍ لها رزان انظري براءة رزان ..
أما براءة فقد غلبت عليها الدهشة والمفاجأة بروية
صديقتها.

تركت رزان كلماتها معلقةً على مسامع الحاضرين وركضت
وأمل حيث براءة وطال احتضان براءة من تلك الصديقتين
الرائعتين حقاً

قالت أمل بلهفة

بقي علينا الاجتماع مع شغف وأراه قريباً جداً كما أنني
أرى حلمنا يدنو ويقترب أيتها الطبيبات

ردت عليها رزان بألمٍ وانكسار

- شغف ماتت يا أمل منذ بدأ القصف استشهدت

- لا لا أحدث ذلك فعلاً!!

- بلى استشهدت في أولى الضربات على حي الفردوس

أكملت براءة

- رحمها الله كانت زهرتنا الجميلة الفواحة وستبقى كذلك إذ

نسعى لتحقيق الحلم الذي جمعنا وإياها

-سنفعل إن شاء الله

قالتها رزان بقناعة ورضوخ للقضاء والقدر

وأكملت

حلب مدينتنا الأولى والأخيرة ألا نرجع لأحضانها أراه

الوقت قد حان

- سنرجع إن شاء الله

- بالتأكيد سنعود لبلدنا الكريم

قررت الفتيات الثلاث العودة إلى حلب بعد أن نسقوا مع

أهلهم واتفقوا معهم على موعدٍ قريب ليحققون بهم

وجاء يوم العودة إلى حي الفردوس حيث الطفولة والشباب

ومولد الحلم

خرجت براءة مع صديقتها وأزواجهم قاصدين حلب
ودخلت معهم إلى مقدمة حي الفردوس حيث سكن والدها
عماد الذي خرج ليعيد المحاولة مجدداً في البحث عن
عائلته ليراها أمامه مع صديقتها

- براءة أنتِ براءة أم أنني أحلم

- لا براءة يا أبي براءة

الحمد لله على سلامتك يا والدي الحبيب

وذهبت مع أبيها تقص له ما حدث معها منذ مفارقتها كما
فعل معها وأخبرها عن مازن الصديق الصدوق الذي ساعده
لينهض بعد الموت بمشيئة الله

أما أمل ورزان فقد صحبتا زوجيهما إلى منازلهما وأكملوا
معاً السير إلى الموقع الذي اعتادوه في الصغر سطح منزل
شغف

فكان ملاذهم في الطفولة للسهر والحلم وتأمل النجوم وقد
اتفقتا مع براءة لتلحق بهما مع أبيها

بينما كان والد شغف الدكتور نضال يكمل دوره طوال الوقت
كطبيب جراح في ألمانيا ولم تسكن همته بموت ابنته
الوحيدة شغف ومن بعدها أمها التي ماتت غرقاً في البحر
بطريقهم إلى ألمانيا رغم حزنه الشديد عليهما

وبمجرد تحرير حي الفردوس عاد إليه ببعثة من نقابة
الأطباء ليفتح مشفى هناك ويمدوه بدورهم بالمال
واللاوازم.

فأخبرهم أن أمرهم ذاك بعيد المدى وصعب المنال في الوقت
الحالي و قرر أن يستطلع الأجواء في الحيّ ويرى بنفسه إن
تبقى شيئاً من المشفى القديم.

وها هو يرجع لحلب وقصد أولاً سطح بيتهم حيث كانت
شغف تلعب مع صديقاتها وقد عبقت رائحتها في المكان .

صعد السلالم ليصل أخيراً حيث كانت الفتيات الثلاث
صديقات شغف على السطح يتذكرون ذاك اليوم الذي بدأ
حلمهم فيه بالتكوّن

ركضت رزان إليه

-الدكتور نضال أم أنني مخطئة

- لا لم تخطئي ولكنني لم أتعرف من أنتم

أنت الأستاذ عماد الياسين جارنا أليس كذلك

- نعم أنا هو سبحانه الله كيف تفرّقنا الأقدار عمراً وتجمعنا
صدفة

- وأنتِ إذاً براءة أما أنتِ.... أمل أليس كذلك

- نعم يا دكتور

جلس الدكتور نضال يحادثهم ويتفاعلون معه

وقد وصل مازن حي الفردوس يسأل عن صاحبه ولم يكن
كأي صاحب بل صحبة السجن تلك خلقت في نفسه شيئاً
مغناطيسياً كما فسره جلعه ينجذب حيث أخبره عماد عن
سكنه

ومن بين الأبواب طرق الباب الذي ستفتحه براءة وكاد أن
يسألها عن رفيق سجنه لولا أنها فتنته بسحرها بعينيها
البريئتين وطفولتها الطاغية على كل شيء حولها كما أنها
لمحت من هيئته فتى أحلامها فقد مر بين قطبي شعره سهم
الحب وتوجه نحوها أما عينيه فكأنها لم تر مثلها من قبل
فوقفت تتأمله بارتباك وحيائه بحزنه وأمله لا تعرفه لكنها
أحست أنها عرفته قبل ذلك

ليطل من ورائها والدها

مازن

السلام عليكم عماد أنت هنا يا صاحبي

عماد

وعليكم السلام كيف وصلت إلينا يا مازن الحمد لله الذي
جمعني بك ثانية

- ألا تتذكر حين أخبرتني أنك تسكن في حي الفردوس وقد
عرفت أنهم أزالوا الحصار عنه قبل أيام فسارعت إليك وقد
وجدتك

- هذه براءة ابنتي وقد أصبحت طبيبة كما توقعت.

- سبحان الله فور أن رأيته شعرت وكأنني أعرفها منذ زمن

- وأنا أيضاً راودني نفس الشعور فقد حدثني أبي عنك كثيراً

- نعم الصديق مازن يا ابنتي رغم فارق العمر الكبير بيننا
إلا أنه أشعرنى أنني مع أخي أو صاحبي القديم منذ اللحظة
الأولى التي جمعتنا

نظرت له براءة نظرة تشي بالامتنان والإعجاب فردَّ عليها
بابتسامةٍ تحمل المعنى ذاته

قالت أمل

إِذَا بَرَاءة عَادَت لِحُضْنِ وَالِدِهَا وَالْآنَ حَانَ وَقْتِي لِأَنْفِذَ
وَصِيَّةَ جَدَّتِي فَأَجْتَمِعَ بِمَنْ فَارَقْتَهُمْ مِنْ أَهْلِي

فرد أنس

ماذا علينا أن نفعل وقد بحثنا عنهم كثيراً منذ وصلنا حتى
الآن ؟

- وسنواصل البحث حتى نجدهم

- سنفعل يا حبيبتي

- أنس ما رأيك أن نرجع لحارة جدي ونسأل أصحاب البيوت
واحداً واحداً

- أما فعلنا منذ وصلنا ما الفائدة من الإعادة؟!.

- نحاول لا أكثر

وقد عاد زياد ومعه ولديه إلى حارتهم بعد أن فارقوها
ليبحثوا عن أمل وأهلها حتى يؤسوا فرجعوا حيث يسكنون

ذهب أنس مع أمل لعلّ محاولتهم تلك تنجح هذه المرة
طرقت أمل الباب ليفتحه لها شابٌ عمره حوالي خمسة
عشر سنة وقال

- أهلاً مَنْ أَنْتِ وماذا تريدين

- أبحث عن عادل وزياد الشاهدي وباقي أهلهم

- من أين تعرفينهم

- أتعرفهم أنت

- زياد الشاهدي يكون أبي وأخيه عادل عمي الشهيد رحمه الله ماذا تريدان منهم

- أيمن أنت أم أنك تقصد عن زيادٍ آخر

- نعم أنا أيمن من أنت ؟

- أمل ابنة عمك .

قلت عادل الشهيد أم أنني أخطأت السمع!

- لحظة أبتِ هيا يا أبتاه إنها أمل ابنة عمي عادل هكذا تقول

ركض زياد ليكحل عينيه بطلتها البهية

واحتضنها فبكت في حضن عمها دقائق طويلة مرت على أيمن وأخته كما لو أنها ساعات

أخبرت كل من رزان وبراءة وأمل الدكتور نضال عن الحلم الجماعي الذي بدأ يتجلى ويبتسم لهن فقام بتشجيعهن ودعمهن

فهذا حلم ابنته وسيحققه لها حتى وإن لم تحضره

خرج الدكتور نضال ومعه البقية لينظرون إلى المشفى وقد هُدم أكثر من نصفه فقرّر أن يعيد بناءه وتشغيله بمساعداتٍ من ألمانيا التي أرسلته لينظر في هذا الأمر تحديداً فتستلمه الطبيبات الثلاث صاحبات الحلم الأنيق اللواتي لم يتخلين عن الهدف رغم قسوة الحرب ومرارها

وبعد عدة شهور شهد حي الفردوس رجوع أهله الذين
انتشروا في كل الأنحاء بحثاً عن السلام الذي فقدوه في
بلدهم وما وجدوه ثانية إلا فيه.

■ —————النهاية

الفهرس

٦_البداية_

١٢_حين يصير الحلم أهلاً
(أمل)

٥٧_بين الحرمان والحرب مسافات للقلم
(رزان)

١٢١_وكان الدواء من حيث كان الداء
(براءة)

١٩٤_النهاية_
(هنا في الذرى)

على الضفة الأخرى

عندما تأتيك الرياح بقوة لتهدم قلبك، وتبعدك عن
الذين أحببتهم فتشعر بأن نور هذه الجونا انقلب عليك
كما ينقلب السحر على الساحر، لتشع سواداً حالاً عليك
ألا تستسلم أو تيأس فشمس الله لا تغيب وفي الضفة
الأخرى لن تجد مكاناً للانطفاء فإما أن تحلم وتسعى أو
تحلم وتسعى حيث يشرق الأمل بقلبك كما ينير الحلم
عقلك فقط أغمض عينيك ودع خيالك يحلق بعيداً.

روائيون